إنسانية محمد ﷺ

الدكتور / حسين صبري

الطبعة الثانية.. مزيدة ومنقَّحة

منشورات 2021م

كُتُبنا
KOTOBNA

إنسانية محمد: د. حسين صبري
الطبعة التانية
الإيداع: ٢٠٢٠/١٤٨٤٤

ردمك: ٥-٩٧-٦٨٢٠-٩٧٧-٩٧٨

إن منصة كتبنا للنشر الشخصي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن آراء المنصة والعاملين فيها.

وسائل التواصل مع الدار:

الإيميل info@kotobna.net

الموقع https://kotobna.net/en
الفيسبوك
https://www.facebook.com/kotobnabooks/

إنسانية محمد ﷺ

الدكتور

حسين صبري

جامعة زايد

دولة الإمارات العربية المتحدة

الطبعة الثانية

٢٠٢١م

الإهداء

اللهمَّ إنكَ تعلمُ أنَّ دراستي في "إنسانيةِ محمد" كانت لي حُلُمًا، وأمنيةً كبرى، رجوتُكَ أن تتحقق، وسعيتُ لها، وأخذتُ بأسبابها.

وتعلم أنّي وبَدءًا من اللحظةِ الأولى؛ و أنا أُخطط لإنجازها، وتجهيز مادتها العلمية وكتابتها، حتى المُسوَّدةِ الأولى، فالنسخة النهائية؛ كنتُ ياالله؛ مخلصًا صادقًا نزيهًا مُتحرّيًا الحقَّ، ومُلتزمًا روحَ العلم، وحدسَ المخلصين في البحث.

وتعلم أني وبكل خليةٍ من خلاياي، وبكل قطرةِ دمٍ في بدني، وبكل نبضةٍ يَرِفُّ بها قلبي؛ أَهْدي دراستي – جَهْد المُقلِّ المُقصِّر– إلى نور عينيَ في الدنيا والآخرة، ختامِ الأنقياء، محمد بن عبد الله، أكمل من أيقن إنسانيته من الناس؛ في بشريته ونبوته وتفرده في رحمته.

وأصلي وأسلّم و أبارك؛ أفضل صلاةٍ وأزكى سلامٍ وأطيب و أتمّ البركات؛ على جامع الحُسْنِ في الوجهِ والروحِ والقلبِ واللسان، منْ بَعْثُهُ وخُلُقُهُ وكَلِمَهُ وسيرتُهُ ورسالتُهُ؛ هُمُ غاية الكمال والاتقان في "الإنسان".

مقدمة الدراسة

بسم الله الخالق البارئ المُصوِّر، الذي خلق "**الإنسانَ**" ووهبه ما يقدر أن يكون به إنسانًا ويسمو في إنسانيته، فلا يكون له بعدها عند الله – إن ضيَّعَ – حُجةٌ أو برهان.

وأحمده تعالى أن كرَّم الإنسان تميّزًا عن سائر مخلوقاته، وأنعم عليه "**الإنسانية**" وأقدره على إنفاذها، فإن مُرادَ الرحمن أن يترقّى كلُّ واحدٍ من البشر إلى العُلى من مراتبها.

فقد علَّمتنا رسالاتُ السماء وتجاربُنا الإنسانية؛ أن الفِطَرَ السويةَ تُميزُ التخريب عن العمران، والقتلَ عن الإحياء، والاستخفافَ عن الاتقان، والإفسادَ عن الإصلاح، وجميعها في مقدور الإنسان، ومن نِعَمِ الخالق على الإنسانية أن جعل في الناس نماذجَ للاختلاف "**لنفهم**"، فبالمثال يكون الاعتبار ويتمُّ الإيضاح.

والباحثون في ساحات العلم؛ ينفعلون بالأحداث المُعبرة عن الإنسانية، يشاركون الناس شجونهم وقضاياهم، لكنهم مختلفون في رؤاهم، منظوراتهم، مناهجهم، إجراءاتهم، تحليلاتهم، أدلتهم، غاياتهم، وأحكامهم.

وقد أُثيرت منذ انطلقت دعوة الإسلام في ربوع الجزيرة العربية، ولازالت تُثار إلى اليوم؛ من حين لآخر؛ مسائلٌ وأحكامٌ تَمَسُّ إنسانية

النبي "محمد" عليه السلام، يطرحُها الباحثون من شتى البيئات والأعراق والثقافات والديانات، يختلف تناولهم وتتباين أحكامهم، فكان هذا الاختلافُ وذاك التباينُ حول إنسانية محمد – في نبوته والوحي الذي أُنزل عليه وخُلُقه وسيرته وسنته ورسالته - هو دافعنا الأول لاختيار "**إنسانية محمد**" موضوعًا للدراسة، لاستقراء وتحليل وتفنيد هذه الأحكام بمنهجٍ علمي، ولإقرار معايير "**المفاضلة**" بين الناس، ولبيان لماذا حازت إنسانية محمد - بهذه المعايير - رتبةَ الكمال والتفرّد، ولقد قوَّى هذا الاختيار: **أسبابٌ**، هي **فرضياتٌ** موجِهةٌ للبحث، وهي بالأساس **أسئلةٌ** تقتضي الإجابة، **فإن كل إجراء بحثي له مَهمتان:**

- **المهمة الأولى**: فحص فرضياته وتوكيد صحتها.
- **والمهمة الثانية**: موازيةٌ لها ولا تقل عنها ضرورة: هي طرح أسئلة "بحثية" تصلح لأن تكون محفزات للبحث.

وأهم هذه الأسباب "الفرضيات" التي وجهتنا لاختيار "إنسانية محمد" موضوعاً للدراسة، هي:

١. الاستدلال على أسباب **الاختلاف** حد التناقض في أحكام الباحثين حول "إنسانية محمد"، بين المسلمين والمستشرقين

والعلماء والمؤرخين والأدباء والمفكرين على اختلاف طوائفهم وانتماءاتهم.

٢. التحليل المنهجي للوقوف على **محددات** هذه الأحكام من حيث: الصحة والبطلان.

٣. استقراء نماذج هذه الأحكام، لتفنيد المسارات التي أوصلت بعضًا منها إلى **الخلل**: منهجيًا، معرفيًا، ونفسيًا.

٤. التحليل العلمي لدلالات ومظاهر وآثار ومقومات "**التفاضل**" في الإنسانية، التي استحوذت عليها "إنسانية" محمد، والبرهنة على صحة ودقة وعلمية معايير المفاضلة.

٥. غياب "**القدْوة**" في الحضارة الإنسانية المعاصرة، وتبدّل المعايير التي تطمئن إليها الأفهام عبر جهود الفكر العلمي والفلسفي، إذ تحولت القدوة من الرسل والمصلحين والعظماء وصُنّاع التاريخ، إلى نماذج أخرى، ليس لها أدنى حظٌ من الإصلاح أو العظمة أو الرقي.

٦. انسحاب "**البُعد الإنساني**" عن كثير من أنماط حياتنا اليومية والعلمية والاجتماعية التي تسود بين الناس؛ في أدائهم، قناعاتهم، وعلاقاتهم، قيمهم، معاملاتهم، وحتى في نواياهم.

٧. "**الوهن**" غير المبرر في "الانتماء" الإنساني، وفي "الالتزام" القيمي، عبر الجهد البحثي في العلوم والفلسفات على حد السواء.

٨. سيادة "**النفعية**" في أحكام الباحثين، وتراخي الروح العلمية في أوساط العلماء وهم النموذج في هذا؛ حتى تحول أمر الناس إلى التفتيش عن الإنسانية في غير محلها بعيدًا عن الإنسان.

٩. الاندفاع الشديد نحو "**ما بعد الإنسانية**"، ظنًا أن فيها الخلاص من مُحصّلة الثورات: المعرفية التكنولوجية البيولوجية، التي أنهكت قوى الإنسان، وقوّت مطامعه في الحياة.

١٠. التوسع العريض لتيارات "**الإلحاد والانحراف والشذوذ**"، وتنامي نزعات الفردية والأنانية والهروب والانسحاب الاجتماعي والنفسي، واتساع نطاقات التبرير، وتسمية الأمور بغير مسمياتها.

١١. تمدّد "**الطموح العلمي**" على يد فريق من العلماء والباحثين؛ بدعوى إصلاح وتيسير حياة الإنسان، حتى ما عادت لكرامة الإنسان قيمتها؛ إلا بدرجة ما تُفيد البحث العلمي داخل مختبرات العلماء.

١٢. "**سيطرةُ العلم المادي**" في الحياة المعاصرة، دون ضابطٍ أخلاقي يقنن تطوره السريع، ما أدى إلى كثير من ردود الأفعال غير منطقية، كالتطرف، واحتكار الدين، والإفراط في ادّعاء التدين، وإنكار النبوات والشرائع السماوية، وتفشي موجات التحرر، والربط التعسفي بين الإيمان والتخلف.

منهج الدراسة:

سوف تتبع الدراسة لتوكيد غاياتها العلمية: **منهجًا استرداديًا استقرائيًا استنباطيًا مقارنًا ونقديًا، حيث:**

- إن موضوع الدراسة مُتصلٌ بنبي الإسلام، وهو **حدثٌ تاريخي،** تضمن مواقف وظواهر وأشخاص، ونشأت له علومٌ وطرائقٌ ووثائق، ولازمته أدلة ورؤى وأحكام، فوجب التوليف بينها من خلال منهج **تاريخي**، لاستكمال المقاربات والمقارنات والوقوف على سياقاتها التاريخية لتحديد: أصولها، جذورها، وآثارها في بناء إنسانية محمد في صدق مفرداتها، وكفاية حقائقها.
- إن فرضيات الدراسة وهي تسير في اتجاهين: أولهما؛ تحليل شواهد الأفضلية في إنسانية محمد وثانيهما؛ تحليل أحكام الباحثين بشأنها، كان لزاماً أن يكون لها نهجٌ **استقرائيٌ** دقيقٌ لفحص حالات الاتفاق على الأفضلية ومعاييرها.
- إن ربط الأصول التاريخية بأحكام الباحثين في إنسانية محمد؛ يقتضي استخدام **الاستنباط** في التمييز بين الحقائق والآراء لاستخلاص النتائج وإثبات الاتساق بين الفرضيات والنتائج.

- إن كفاية النقد في دراستنا يقتضي التوفيق بين أشراط الموضوعية في كفاية الحقائق والأدلة وأشراط الذاتية في النزاهة والحيادية، **فالنقد المنهجي** وسيلة تحقق من صحة الأدلة والأسانيد، ومعيار لكشف المغالطات.
- إن **المقارنة** طريقة منهجية لبحث وتدقيق الشواهد والحقائق والأحكام والأدلة، وهي أداة إقناع علمي لإثبات صحة الفرضيات الموجهة للدراسة.

وسوف يأتي توظيف هذه المناهج بشكل متقاطع وتكاملي، لضبط إجراءات البحث، وطرح فرضياته، والتحقق منها.

تتألف الدراسة - في بناءٍ بحثيٍ تراكميٍ وصولًا إلى نتائجه - من مكوناتها التالية:

التمهيد:

لتحليل جذر مفردة "**الإنسان**"، وما تشير إليه من دلالات لغوية واصطلاحية، أعطت "**التميز**" لجنس البشر كالإدراك والعلم واليقين، لتوكيد أن الإنسان ليس بماديته وجسمه وإنما بِرُقيّ ذهنه وخلقه، ويوضح التمهيد أن العلم الإنساني إن لم يقترن بخُلق؛ أفلت من سلطة العقل، وهذا ما أصاب الحضارة المعاصرة، إذ ظهرت

نزعات "الإنسانية" و"ما بعد الإنسانية" وتسارعت الثورات: المعرفية، والاتصالاتية، والتكنولوجية، والبيولوجية، التي أفرزت أفكارًا أفقدت الإنسانية جوهرها، من مثل: "إلغاء الدين" و"إنكار النبوات" و"التفلسف المادي بكل أطيافه"، ما أدى إلى شيوع الطلب المتزايد للحرية المطلقة، التي أنتجت العلمانية والإلحاد والانحراف والشذوذ والأنانية، وينتهي التمهيد إلى ضرورة تقنين العلم بضابط إيماني لا يستقيم إلا عبر الشرائع المنزلة.

القسم الأول:

يركز على فحص "إنسانية محمد" بين مفهومي: **الاتساق والتمايز**، ويقدم نماذج للبرهنة على التلازم بينهما، كالتمايز والاتساق بين "محمد" و "الوحي"، ويبرهن على ما أُعطيه النبي من طاقات البشرية وطاقات النبوة، وينتقل لتحليل واستقراء دلالات لفظة "الإنسان" في آيات الوحي عبر السياقات القرآنية، للوصول إلى العنصر الرئيس في هذا القسم وهو قيمة "المفاضلة" بين محمد وسائر البشر، **ليحلل معايير المفاضلة وشواهدها** من تاريخ الفكر الإنساني، وهي شواهد: الرحمة، الصحبة، الفطرة، النَصَفَة، الذوات السوية، والإجماع العلمي، ويتفحص المعايير التي تمايز بها نبي الإسلام وتفرد، في الثبات على المبدأ، الإخلاص، المسئولية، والتوسط الخلقي، ويقدم في هذا

الفحص الأدلة على الكمال الإنساني لدى النبي محمد، في مقدرات بشريته ومعطيات النبوة.

القسم الثاني:

يركز على تأكيد التلازم بين الموضوعية والذاتية كضرورة إجرائية في العمل البحثي، ويؤكد هذا القسم أن الربط بين الذاتية وعدم المنهجية هو **ربط غير علمي**، ويثبت أن الذاتية كالموضوعية، هي معيارٌ أساسيٌ في إقرار الروح العلمية، وأن للذاتية – في العمل البحثي - إرادتين: السوية والمتطرفة، بهما يتوصل البحث إلى أحكام صحيحة أو باطلة، وينتقل القسم إلى بيان مقدمات الكتابة في السيرة النبوية، ومنهجية الكتابة، وقواعد هذه المنهجية، ويفحص كيف سادت "الروح النقدية" في تدوين السيرة التي أسسها المسلمون علماً لأول مرة في تاريخ الكتابة الإنسانية، ويحلل معاييرها من الصدق، الوضوح، الصحة، الدقة، الإسناد، التوثيق، والروح العلمية، ثم يفصّل القسم في تحليل مقدمات الخلل في أحكام الباحثين من المستشرقين ومن المسلمين حول إنسانية محمد، ويفنِّد محددات هذا الخلل من التعسف في الحكم، إنكار الحقائق، عدم التمييز بين الحقائق، الاستنتاج القسري، القصور في الرؤية، والضبابية في الحكم، وتؤكد الدراسة على الربط المحكم بين هذه المحددات

ووجود الخلل منهجيًا، ومعرفيًا، ونفسيًا، وأن صحة الحكم تقتضي قراءة دقيقة وتحليلًا موضوعيًا وذاتية سوية؛ لفهم الحقائق المعبرة عن إنسانية خاتم المرسلين ﷺ.

الدراسات السابقة لموضوع "إنسانية محمد":

لقد ورد موضوعُ دراستنا "**إنسانية**" محمد ﷺ عبر التدوين الشفهي للسيرة العطرة وعبر رواية السنة الشريفة بين الصحابة، حيث تواصل حفظهم لها ونقلهم إياها وعملهم بها، وانتقل الحفظ إلى جيل التابعين ليدونوه علمًا مكتوبًا على يد كُتّاب السيرة الأُوَّل من مثل: عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري وموسى بن عقبة، ليصل إلى جيل نالَ قدرةً أكبر ومنهجيةً أدق في توثيق وتدوين مجريات السيرة على يد ابن إسحاق، فابن هشام والواقدي وابن سعد، الذين أسسوا من السيرة علمًا له منهجٌ وأصولٌ وضوابطٌ، ونجحوا في بناء علوم أخرى تسانده كالجرح والتعديل والإسناد، وظلت "إنسانية محمد" جزءًا ضمنيًا وبشكل عرضي في عامة الدراسات التي صارت بعدها – في كل جيل دون توقف – ضمن البحث المتعلق بتاريخ الإسلام ومغازي الرسول وما صاحب دعوته من تفاصيل وأحداث وأشخاص ومواقف، ولم يخلْ جيلٌ من المفكرين في تاريخ الإسلام ومن شتى الثقافات الأخرى من الكتابة في هذه الموضوعات، وإن ركز بعض

المحدَثين عرضيًا على "**الإنسانية**" من جهة صفات النبي وأخلاقه وأثرها ونماذجها، **<u>ولكن من غير</u>**:

- **تحليلٍ لقضية التلازم بين "الاتساق" و"التمايز" في إنسانية محمد**
- **واستقراء شواهد الأفضلية في أحكام المنصفين لإنسانية محمد وتدقيق معاييرها**
- **وضبط أسس وأصول "الروح النقدية" في منهجية تدوين السيرة**
- **وتأكيد الربط العلمي بين "الموضوعية" و"الذاتية" في بناء أحكام المتعصبين في أحكامهم**
- **وتحليل نقدي لمحددات الخلل (المنهجي، المعرفي، والنفسي) في هذه الأحكام**

إذ لم تركز دراسةٌ سابقةٌ – قدر ما توصل إليه علمُنا وبحثُنا – على فحص وتحليل لـ "إنسانية محمد" بشكل تفصيلي ومستقل عبر هذه الأبعاد وعبر هذا المنظور تحديدًا، فكانت دراستنا لسد تلك الفجوة، أرجو الله الكريم المجيب أن يتقبلها قبولًا حسنًا، ويجعل لها في الناس نفعًا وأثرًا، ويجعل من إخلاصي فيها؛ زادًا لي في دنياي وآخرتي، وخيرًا للإسلام والمسلمين والإنسانية، إنه هو ولي ذلك والقادر عليه.

المؤلف د. حسين صبري
أبو ظبي - في أبريل ٢٠٢١م

التمهيد

لماذا الإنسانية ......؟

تقودنا الحروف الأصلية الثلاثة لمفردة "**الإنسان**" وهي: الهمزة والنون والسين، إلى اشتقاقاتٍ عديدة، يبدو للوهلة الأولى أن هناك فيما بينهما تباعًدا، غير أنه اختلافٌ لغويٌ ناتجٌ عن الاشتقاق، أما دلالاتها في الاصطلاح؛ فإن بينها رابطًا دقيقًا واحدًا، لا يمس انتظامها، لتؤدي معنىً جامعًا يسري على كل ما يُشتق من هذه الحروف الثلاثة.

فقد اشتُق منها؛ مفردات "الأَنسَ" و "الأُنْسُ" و "الإِنْسُ" التي تُوظف تارة كأسماء وتارة كصفات في الإشارة إلى الطمأنينة والسكن وذهاب الوحشة، واشتُق منها "أَنَسَ" و "أَنِسَ" و "آنَسَ" في الدلالة على أفعال عدة، هي: أحسّ، سمع، رأي، أبصر، نظر، عَلِمَ، واطمأن، واشتُق منها "استأنستُ" أي استعملتُ [١]، وكلها دالةٌ على تكاملٍ عضويٍ عصبيٍ نفسيٍ لأداء فعل "الإدراك" الذي يقترن دائمًا بالمُدْرِك وهو "الإنسان"، بهذا التكامل يتمُّ الفهم ويحصل التمييز، ربما لهذا السبب اشتُق من هذه الحروف لفظة "الإيناس" التي فيها "الدلالةُ على اليقين" [٢]، ما يعني أننا بإدراكاتنا نستطيع الفهم والتمييز بين الظواهر والأفكار والآراء والحقائق والانطباعات، لنصل إلى اليقين، فاليقين أيضًا كالإدراك؛ هما من أفعال "الإنسان".

هذه الدلالات تلتقي في أن من تمام الفعل "الإنساني" هو الإشباع الذي يملأ العقل والروح، لهذا تتفق اللغة والاصطلاح في أن

"الإنسان" هو "الراقي ذهنًا وخلقًا" (٣)، فالإنسان بعقله وخُلُقه وليس بجسمه وماديته، لأن حقيقته "مغايرة للسطح واللون وكل ما هو مرئي" (٤)، فهناك كائناتٌ حيةٌ دقيقةٌ لا حصر لها ولا نراها بعيوننا المجردة، وهناك حيوانات غيرها نعلمها، لها من الحواس والقوى والنفوذ ما تقهر بها الإنسان وتتفوق عليه، ويتغلب عليها الإنسان، ولكن بصفات مغايرة، تفرد بها وحده، هي "خصائص تميز الجنس البشري" (٥)، ويمكن حصرها في اثنتين، **هما**:

- **عقله**؛ وما يبذله من علم
- **وخلقه**؛ وما يبدع من خير

ولم يقرر الجنس البشري تميزَه بنفسه، وليس متروكًا له أمرُ عقله على إطلاقه، ولا أمر خُلُقه على إطلاقه، فلا بد من ضابطٍ لهما محدد، هذا الضابط هو من أراد للإنسان التميز، وقدَّرَهُ له.

لهذا لو قلنا "**أَنْسَنَ الإنسان**" علمنا أنه "ارتقى بعقله وهذبه" (٦)، **فليست العبرة بالعقل مجردًا و إنما بالعقل مهذبًا**.

فهل هذا يعني أن الإنسان في حاجة إلى "أنسنة" ليصير إنسانًا؟

إن صح هذا؛ فكيف يكون حكمنا على هذا المخلوق قبل أن يؤنسن؟

إن "**الأنسنة**" لا تستقيم إلا بنهجٍ موصولٍ من السماء، يصير به الإنسانُ إنسانًا، فلا ترتقي أكثر الحيوانات أُلفةً أو ذكاءً بالأنسنة، حيث لا يكون لها ذاك التميز الإيماني الذي يكون للإنسان، وينفعل به عقله وخُلُقه.

فهل هذا يمنحنا الحق في أن نتساءل:

- **أيهما أسبق في الدلالة إلى الآخر: الإنسانُ، أم إنسانيته؟**

رغم فلسفية السؤال، وما ينطوي عليه من أبعاد وجودية وعلمية ومنطقية؛ فإن جدلية العلاقة بين "الإنسان" و"إنسانيته" تزيد السؤال غموضًا وصعوبة وتقطع رجاءنا في الإجابة عنه، لأن تصور الإنسانية أمرٌ شاقٌ، لأن الذي يتصور هو "الإنسان"، وتصور الشيء يحتم وجوده واقعًا، ندركه، ونفهمه، ليكون الحكم فرعًا عن تصوره.

أحيانًا؛ نحكم على نماذج من "الإنسان" أو من "أفعال" الإنسان بأنها "إنسانية"، وأحيانًا؛ نحكم على نماذج أخرى غيرها بأنها "دون الإنسانية"، بل ربما تتناقض أحكامنا على الإنسان نفسه أو على الفعل نفسه، فهل هذه الأحكام هي أحكام صحيحة وواقعية، أم هي على سبيل المجاز والكناية؟

يوجد اعتقادٌ قويٌ أن هناك "**مراتب**" في الإنسانية، وأن فيها "**تفاضلًا**" أقرته الشرائع السماوية وتحكمه أعراف الناس ويؤكده العلم ويبني المعاير لقياسه وتقديره ولإجراء المفاضلة بين الناس.

لهذا لم يكن مستهجنًا أن يؤسس فريقٌ من المفكرين يدعمهم علماءُ لـ"**ما بعد الإنسانية**"، يحدوهم رغبة في المزيد من السيطرة، يراودهم تجنب الألم والمرض والضعف والموت، ويطمعون في الخلود والطاقات والقدرات أضعاف ما بين أيديهم الآن، هم يبصرون آثار العلم الإنساني يترقَّى كل ساعة حتى تجاوزت نطاقَ الأرض ودقائقها، فانطلق فعلُ العلم عبر مجالين من الآفاق، متقابلين، لعلهما يتكاملان أو يلتقيان:

- **شمولي**؛ يمتد إلى الكون والكائنات والأعماق الحية والجامدة، والفضاءات، وكل ما تطاله آلة الإنسان.
- **وداخلي**؛ ينفذ إلى أعماق الإنسان، في خلاياه، أنسجته، وظائفها الحيوية والنفسية، جيناته، هندسته الوراثية، ومستودع أسرار عقله الباطن الذي لا يزال مجهولًا.

والبحث مستمرٌ، والتغيير متوالٍ، سريع وشامل، وليس باديًا من قريب أو من بعيد أن هناك ما أو من سيوقفه، والإنسان مُحْدِثُهُ، وأولُ عناصره، وغايةٌ كبرى من غاياته، إذ "لا يمكن فصل العالم

بصورة كاملة عن إدراكنا له، فهو يتبدل تحت أنظارنا" [٧]، وليس محددًا حتى الآن: هل هذا التبدل - الذي ندركه - هو أثرٌ من الفكر، أو الحُلْم، أو من فورة النفس، أو بعض شطحات العلم والعلماء؟

فالأحداث المرتبطة بالبيولوجيا تبدو متلاحقةً "إلى الحد الذي يصعب معه تسجيل كل الوقائع المرتبطة به"[٨]، وليست جميعًا قيد السيطرة، ولعلهُ قريبًا سيتمكن العلم من تحديد الجين الخاص بصفة مثل الذكاء، والطول، ولون الشعر، والعدوانية، أو احترام الذات، لكي "يستخدموا هذه المعرفة لصنع نسخة "**أفضل**" من الإنسان"[٩]، ضمن ترتيبات العلم لما بعد الإنسانية، بعد أن تمكن جيلٌ سابقٌ من المفكرين من بناء "**مذهب**" في "الإنسانية"، يُكتفى به عما سواه من الدين والسلطة والدولة والمجتمع، وامتدَّ المذهب، وأعلن عن نفسه، حتى صار «**فلسفةً**» أخلاقها "لصالح البشر في الدنيا واستبعاد كل الاعتبارات الأخرى المستمدة من الإيمان بالله" [١٠]، وارتبط هذا التفلسف بالتنوير وتديَّن بالعلمانية.

– فهل كان إسباغ مفهوم "التنوير" مضادًا للدين، هل كان هذا مقصودًا؟

لعل من احتكروا سلطة الدين في أوروبا – **لصالحهم** - هم سببٌ رئيسٌ في هذا القصد، ما يثير الدهشة أن جوهر التنوير أصبح لهذا

السبب الأوروبي البحث، مُركَّزًا في إلغاء "فكرة الدين"، بحجة "أن الدين يحد انطلاق العقل"(١١)، بل ظهر من يرى في "الإلحاد" و "إنكار النبوات" أنه "منحنىً تنويريًا ممتدًا من السوفسطائية إلى أوروبا الحديثة" (١٢)، والمفارقة أن في نسيج التنوير أطيافًا، من أنصارها متدينون، ويحظى الملحدون بجرأة إلى جرأتهم في خضم هذا النسيج، إلى أن أصبح "الإلحاد" مشتملًا ما هو أكثر من الإلحاد نفسه، حيث يراه أصحابه "موضع اجتماع القوة وتسلطها" (١٣)، ولما قوى هذا الموضع واشتد بأس مؤيديه، أنتجوا من بينهم من يؤمن بأن كل شخص هو له، إذ "ليس هناك نمط كلي عام لبشرية أصلية يمكن أن يفرض على الجميع" (١٤)، في دعوة لتكريس «**الفردية**» بحجة إقرار حرية كل فرد لأقصى ما يستطيع، حتى صار الانتحار قرارًا مقدَّرًا، وهناك ما يبرره ومن يدافع عنه ويُشرّع له، إلى الدرجة التي أدمن فيها الإنسان "إنسانيته" حتى فقد إحساسه بها، وبدأ يسعى في تجاوزها إلى ما بعدها.

يبدو أن الإنسان يجرف إنسانيته بيدٍ من العلم من جهة، وهو يعطل في نفسه يدَ التمييز من جهة أخرى، عبر تاريخٍ ممتد، في ثورةٍ إثر ثورة، حتى أنه ما عاد يميز بين ثورة تبنيه وأخرى تُفسده، بدءًا من انفعاله الفطري الأول ليبقى على الأرض، إلى ثورته في بناء التحضر، فثورته

الفلسفية، إلى تدوين العلم، وتطبيقات العلوم، إلى النهضة، فالحداثة والتنوير، فالثورة على الدين، فالثورات المادية المتوالية الكبرى، فالثورة المعرفية، فالتكنولوجية، فثورة الاتصالات، توقًا إلى الثورة البيولوجية، إلى الانشغال بثورة «**البطش**» بالإنسان واستباحة كرامته ودمه ووجوده، بدعاوى لا تنقضي، شغفًا لإنجاز "ما بعد الإنسانية"، حتى لو سار في هذا الإنجاز فاقدًا لأخص خصائص العلم وهو "**التنبؤ**".

هناك **طرحٌ فلسفيٌ**؛ للخروج من المأزق، حيث قيل إن الفلسفة باستطاعتها "أن تنقي العلوم من نتائجها غير العلمية" (١٥)، وأن يجب على الإنسان أن يتحلى بصفة "العلمية"، فهي التي "ستوفر قيدًا لتحجيم الأهداف الخبيثة" (١٦)، من غير أن يدلنا هذا الطرح على آليات تحويل الصفة إلى واقع.

وطرحٌ نفسيٌ؛ يذهب إلى ضرورة تغيير الشخصية الإنسانية "من نمط التملك إلى نمط الكينونة" (١٧)، فانحاز الطرح إلى التفلسف، فيما ذهب آخرون ضمن هذا الطرح إلى البناء على خاصية مشتركة بين البشر وهي "رفض التناقضات الصريحة والنزوع إلى الاستقامة" (١٨)، فلم يعد واضحًا؛ أتلك رغبةٌ في حل نفسي أم مجرد عملية تنظير فلسفي ليس إلا ؟!

وطرحٌ أخلاقيٌ: يرى مفكروه أن أصحاب الحضارات المعاصرة "لم يدركوا أنهم يستطيعون أن يعتدوا على قوانين الطبيعة من غير أن يلاقوا جزائهم" [١٩]، ويعوِّل آخرون على المساحة الجوانية للإنسان، لأنه "قادر على أبشع أنواع الجرائم وعلى أنبل التضحيات" [٢٠]، فيما يحسم فريقٌ آخر تلك المواجهة الأخلاقية في ضرورة "حدوث تغيير عميق في الضمير الإنساني" [٢١]، غير أن الخطاب الأخلاقي هكذا يعوزه غالبًا "المثال الحي" الذي يحتاجه إنسان اليوم أكثر من حاجته لوعظٍ نظري.

وطرحٌ سياسيٌ: يلجأ إليه صنفٌ من المفكرين، اعتقدوا أن ما يمكنه التحكم في التقنيات الحديثة هو المجتمع المشكل ديموقراطيًا، لأن "له سلطة لا يقدر أحدٌ على ردعها" [٢٢]، دون أن يقدم هذا الطرح ضمانًا واحدًا معقولًا: ألا ينتهج الساسةُ نهجَ العلماء في استعجال "ما بعد الإنسانية"، فضلًا عن أن هذا الطرح يتوجه لمعالجة عوارض المأزق دون أن ينفذ إلى علته الحقيقية.

لسنا في هذا التمهيد معنيين بالدرجة الأولى، بتقييم محاولات الإنسان المعاصر في التصدي لما بعد الإنسانية، ما يعني البحث: هو الوعي بالنتائج في واقع الإنسان المعاصر، وباندفاعات الإنسان لتمكين المأزق من حياتنا، ثم السعي حثيثًا لمواجهته، كالأم الولهى على

وليدها الذي فقدته في الزحام، فانطلقت تفتش عنه في أرجاء الأرض وهي تحمله بين ذراعيها.

الإنسانية "**صفاتٌ**"، لكنها أيضًا وفي الوقت ذاته "**قيم**"، ولا يُتصور أن تتضاد القيم، فإن قانون الأخلاق الإنسانية ألا تتصارع في حلبته قيمتان كالعلم والخيرية، فإن ما يقرر توافقهما، إيمانٌ بأن للخَلْقِ خالقًا، وما يقرر توافقهما هي نماذجُ تجسدهما واقعًا في أروقة العلم والفلسفة، ونماذج الأنبياء والمرسلين الذين ربطوا الأرض بالسماء، وختامها؛ نموذج "محمد"، الذي يقدم لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني، في "إنسانيته" وفي "سيرته"، نوعين من الصدق: صدق محمد وصدق من أسسوا من سيرته علمًا ومنهجًا، ودراستنا ستتناول "إنسانية محمد" **عبر مسارين متتابعين**:

- **مسار التلازم بين الاتساق والتمايز**
- **مسار الربط المنهجي بين الموضوعية والذاتية**

عبر إجراءات بحثية، غايتها التحقق من صحة فرضية؛ أن الإنسان المعاصر ليس بحاجة إلى "ما بعد الإنسانية"، إنما حاجته إلى نموذجٍ حيٍّ عاشه الناس كافة، عاينوه بأبصارهم وأفهامهم، وعلموا أثره في الإنسان، الذي هو الآن في أَمَسِّ الحاجة لأن يعود - **كما ينبغي أن يكون** - إنسانًا.

هوامش التمهيد:

(1) ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله على الكثير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، المجلد الأول، ص 147:150 والرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1، 1986، ص 11

(2) ابن منظور: لسان العرب، المجلد الأول، ص 15

(3) شوقي ضيف وآخرون: المعجم الوسيط، الشروق الدولية، القاهرة، ط 4، 2004، ص 29

(4) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، جـ 1، ص 278

(5) إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ط 1983، ص 25

(6) أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 2008، المجلد الأول، ص 129

(7) برونوفسكي: ارتقاء الإنسان، ترجمة: موفق شخاشيرو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم 39، مارس 1981، الكويت، ص 247

(8) ناهد البقصمي: الهندسة الوراثية والأخلاق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم 174، يونيو 1993، ص 71

(9) فرنسيس فوكوياما: مستقبلنا بعد البشري: ترجمة: إيهاب عبد الرحيم محمد، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ط 1، 2006، ص 101

(10) إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: معجم مصطلحات العولمة، نسخة إليكترونية، ص 330:331

(11) محمد متولي الشعراوي: رداً على الملاحدة والعلمانيين، إعداد: عطية الدسوقي عمر ومحمد عبد الله بدر، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ط١٩٩٥، ص١٦

(12) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، سينا للنشر، القاهرة، ط 2، 1993، ص 263

(13) ديفيد بيرلنسكي: الإلحاد ومزاعمه، ترجمة: عبد الله الشهري: مركز دلائل، الرياض، ط 1437 هـ، ص 33

(14) جون ماكوري: الوجودية، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم 58، أكتوبر 1982، ص 228

(15) راتسينغر: جدلية العلمنة، تعريب: حميد لشهب، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ط 1، 2013، ص 68

(16) تشارلز باسترناك: جوهر الإنسانية، زينب عاطف، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ص 395

(17) إريك فروم: الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعد زهران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 140، أغسطس 1989، ص 159

(18) سعيد الحفار: البيولوجيا ومصير الإنسان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 38، نوفمبر 1984، ص 186

(19) ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: عادل شفيق، الدار القومية للطباعة والنشر، ص 8

(20) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا للنشر، ألمانيا، ط 2، 1997، ص 185

(21) إيريك فروم: الإنسان بين الجوهر والمظهر، ص 125

(22) فوكوياما: مستقبلنا بعد البشري، ص 228:229

القسم الأول

إنسانية محمد بين "الاتساق والتمايز"

- تمهيد
- التلازم بين الاتساق والتمايز
- "الإنسان" من منظور قرآني
- "المفاضلة" بين الناس
- "الشواهد الستة" في أفضلية محمد

تمهيد:

ورد الخطابُ الإلهي لنبي الإسلام مخصصًا باسم "محمد"، في أربعة مواضع من آيات القرآن الكريم، وورد في مواضع أخرى، بصفةٍ من صفات محمد، **من مثل**:

- النبي، الرسول، الشاهد، المبشر، النذير، الداعي، الرؤوف، الرحيم، الأمّي، النور، المُذَكِر، المزَّمل، المدَّثر، الحق، الكريم، والولي.

وورد الخطاب عامًا، دون تخصيص باسم أو صفة.

وفوق ما يحمل الخطاب القرآني من أمرٍ ونهي وهَدْي وتشريع وإخبار وقَصص وعِظات وعبادات وعقائد وأحكام وأخلاق ومعرفة وعلم؛ فإن الخطاب يؤكد على قضية محورية في سياق الوحي القرآني، هي قضية "**التلازم**" **بين أمرين في غاية الأهمية، هما**:

- **الأمر الأول**: هو التآلف والتكامل والانسجام، وسوف ندل إليه بمفهوم "**الاتساق**".
- **والأمر الثاني**: هو التغاير والتقابل والانفصال والاستقلال وربما التناقض أحيانًا، وسوف ندل إليه بمفهوم "**التمايز**".

وكأن الاتساق والتمايز وما بينهما من تلازم؛ يمثل العِقد الذي فيه وبه تنتظم العناصر المحددة للوجود في شتى صوره، وللمخلوقات

بأنواعها، وللبشر على اختلافهم، وهي المحددُ لجوهر الإنسانية بمادتها وروحها، والمُحددُ لجوهر "إنسانية محمد".

إذ باستقراء الآيات القرآنية، يتضح جليًا هذا التلازم بين الاتساق والتمايز من زوايا عدة، ومن جهات عدة، ولأغراض عدة، نهتدي إليها حينًا بعد حين.

<u>فمن جهة أولى، نجد:</u>

- أن محمدًا – **كرسول** - له من الاتساق مع كافة الرسل الذين سبقوه "لا نفرق بين أحد من رسله" في حمل أمانة السماء من الدين لهداية الإنسان، وله من التمايز ما ليس لرسولٍ منهم، هي "الخاتمية"، وعلى يديه كان "كمال الدين"، وأن النداء الإلهي لم يأت في سياق الوحي القرآني باسمه مجردًا، وإنما بوصف النبوة أو الرسالة.
- وأن محمدًا – **كإنسان** - له من الاتساق ما يجعله سواءً بسواء مع المؤمنين، في الرحمة فيما بينهم والشدة على الكفار، وله من التمايز ما ليس لأحدٍ منهم، وهو حمل تبعات البلاغ بالرسالة ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ المائدة / 67.

<u>ومن جهة ثانية</u>؛ نجد أن الآيات القرآنية تقبض على هذا التلازم بين الاتساق والتمايز في "إنسانية محمد" حيث إنها:

- تؤكد على "**بشرية محمد**"، كقوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا **مِنْ أَنْفُسِهِمْ** يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ آل عمران / 164.
- وتؤكد على "**نبوة محمد**"، كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا **النَّبِيُّ** إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الأحزاب/ 45.

وبهذين التوكيدين تثبت الآيات التمايز بين "البشرية" و "النبوة"، لكنها لا تقف عند حد إثبات التمايز، وإنما تمضي الآيات إلى تقرير خاصية الاتساق بينهما، والتلازم في هذا الاتساق، **حيث**:

- تؤكد أن لا انفصال بين "البشرية" و "النبوة" في إنسانية "محمد"، كقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أنما إلهكم إله واحد﴾ الكهف / 110.

ولسنا بصدد البحث في الفروق بين "النبوة" و "الرسالة" ولا في المشترك بينهما، إنما غايتنا هنا أن نستنبط من آيات الوحي: الاتساق والتمايز اللذين كانا سائدين، مقترنين، متلازمين، ومُعبرين عن التفرد في إنسانية واحد من الإنسان، ليس واحدٌ من الناس مثله أو حتى قريبًا منه في إنسانيته.

وكأنهما؛ الاتساق والتمايز وما بينهما من تلازم، هما واحدٌ من أسرار الله تعالى في إنسانية محمد، ينبغي السعي إلى إدراك أبعاده ودلالاته وآثاره، إضافة وترسيخًا لرصيدنا الإيماني والمعرفي.

فبقدر ما نجد التمايز في إنسانية محمد، وفي نبوة محمد، وفي إيمان محمد، عمن سواه، فإننا نجد الاتساق بين محمد والذين آمنوا معه حتى يشملهم وصف الله عز وجل لهم بالرحماء، والاتساق بين محمد وكافة رسل الله في إقرار الوحدانية المطلقة، لنصل إلى درجة الاتساق بين محمد ووحي السماء، حيث "يمتزج الرسول بالقرآن روحًا، وقلبًا، وجسمًا، ويمتزج القرآن به عقيدة وأخلاقًا وتشريعًا" (1)، فلا نقرأ القرآن ونتدبر آياته إلا ويملأ عقولنا وإدراكاتنا - عند التدبر- نموذجُ "محمد" النبي الإنسان، ولا نقرأ محمدًا في فعله وقوله وتقريره ومناقبه إلا ويملأ أفئدتنا وجوارحنا - عند تأملها- أسرارُ الوحي القرآني.

فإن محمدًا والوحي - رغم تمايزهما - متسقان في الدلالة على دين الله، اتساقًا يدفعنا إلى تفحص واعتبار وجوه الإعجاز في هذا الاتساق، **كما يدفعنا للتحري والبحث، لفهم واستيعاب إمكانية أن يُعطىَ إنسانٌ**:

- **من طاقات البشرية؛** ما يؤهله ليكون دالًا بخلقه كله على وحي السماء.

- **<u>ومن طاقات النبوة:</u>** ما يمكّنه من تمثل الوحي بين الناس، قولًا وفعلًا وتقريرًا.

ولعل هذا هو ما دعا زوجات النبي والصحابة أول عهد الإسلام، ثم المتأملين حال الإسلام ونبي الإسلام، والباحثين والمفكرين عبر القرون من مختلف البيئات والثقافات والديانات، أن ينتبهوا لهذا الاتساق العجيب بين محمد والوحي، لكي يدركوا أن في استطاعة الإنسان أن يصير خليفةً لله في أرضه كما أرادَ له الخالق سبحانه، ساعيًا بين الناس بخلق الإيمان والإصلاح، لا بفوضى الدم والخراب والفساد.

سُئلت عائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله، قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خُلق نبي الله ﷺ كان القرآن [٢]، فكما جسَّدت أخلاقُ محمد آيات الوحي، يظل الوحي مُعبرًا عن أبعاد إنسانية محمد في بشريته ونبوته، ومُوَثِقًا لسيرته كلها، حتى يرى البعض "أن القرآنَ هو المصدر الأول الذي نقتفي منه أثر محمد، وفيه أهم وسائلنا لمعرفته" [٣]، في تعبير دقيق يركز في محمد على أثر صفاته وسيرته وخلقه، فليس هناك في أثر الإنسان: أعظم من خُلُق يتسق – هذا الاتساق - مع وحي السماء.

ففي الاتساق والتمايز دلالة على أن الله تعالى اختص بعضًا من عباده بالنبوة والرسالة، واختص بعضًا من رسله بعطاءات، واختص كل إنسان بما ليس في غيره من الناس، واختص محمدًا بما ليس لغيره

من الناس والرسل، هذا الاختصاص لم يمس إنسانية محمدٍ بنقص، فقد أبقى على إنسانيته وزادها نوعين من الكمالات: كمالات بشريته وكمالات نبوته، فصار له من اتساق الكمالات، التمايزُ في إنسانيته، وتظل "إنسانية محمد" هي عمادُ سيرته، وتظل سيرته موضوعًا للبحث في العلم بين العلماء، مادته الأولى ما جاء في آيات الوحي القرآني وفصلته كتب السنة والسيرة والمغازي والشمائل والتاريخ، ويظل الاتساق والتمايز يمثلان معًا "قيمةً"، وتنبيهًا مهمًا؛ أن هذا الأمر يُعدُّ من مقومات "إنسانية" الإنسان وقيام الكون وبقاء الوجود، ولا يمكن إلغاؤه أو رفضه، وفي هذا الأمر رسالةٌ؛ أن علينا قبول التمايز والسعي للاتساق، فقد حوّل النبي محمد ﷺ التمايز إلى تطبيقٍ فعلي في صحابته وأزواجه وأساليب دعوته وطرائق عبادته، ولكن في إطارٍ متفرد من الاتساق الإنساني.

إن الوحي القرآني المصدرَ الأولَ لسيرة محمد، هو نصٌ لغوي، يمكننا أن نصفه بأنه يمثل "نصًا محوريًا في تاريخ ثقافتنا" (٤)، هذا النص الإلهي له من مادة اللغة سورٌ وآياتٌ ومفردات، وله من روحها آفاقٌ وعطاءاتٌ ودلالات، وعلى قدر التمايز بين مادة اللغة وروحها؛ فإن بينهما اتساقًا، له دلالته على تمام البناء الفكري للوحي، وعلى تعاضد آياته وخلوها من الاختلاف، **ما جعل للوحي نوعين من التعلق:**

- **تعلق إلهي:** في نظمه ودلالاته وإعجازه ورُقيّه.

- **<u>وتعلق بشري</u>:** علينا أن نجتهد لتحصيله، في مقاصده وغاياته.

وقولنا بتعلق بشري للوحي؛ لا ينبغي أن يتجاوز حقيقة أن العقل البشري المُتّقد هو المَعْنِيّ بالوحي وتلقّيه واعتباره، فليس كلُ عقل قادرًا على الاعتبار الصحيح، لأن الوحي "لا يعني تراجع العقل، لكنه العقل وقد تزايدت سرعته" (٥)، وسرعة العقل الإنساني تكمن في استعداده للفهم وفي تحصيله لليقين، فلم ينلْ محمدٌ أعظم من وحي السماء، فاعتبر وامتثل وتيقن، وتغيّر، ثم غيّر، إذ إن "من أسباب التغيير الذي أحدثه النبي محمد هو القرآن الذي يتكون حصريًا من الوحي" (٦)، فإن أجلّ وأبلغ تغيير يسعى إليه دين الله في بني الإنسان، هو أن يُمكّن في كل واحد منهم لإنسانيته، لأن محمدًا الرسول الخاتم، عندما غيّر، كان هو الإنسان الذي يستفيق وينهض خارجًا عن ربقة الموروث مما درج عليه عرب الجزيرة، ثم يمضي قُدمًا دون راحة ودون توقف، ينادي الآخرين حتى يوقظهم من سباتهم العميق، فهكذا تاريخ البشرية "يتوقف على الرجال الذين يتمكنون في اللحظات الحاسمة من تغيير صفحات التاريخ" (٧)، لهذا السبب تحتل الإنسانية حيزًا معتبرًا في آيات الله تعالى البيّنات، ومسارنا الأول في هذا الجزء من الدراسة هو تحليلُ أبعاد ومرامي لفظة "الإنسان" ضمن سياقات النص القرآني.

الإنسان من منظور قرآني:

لكل لفظٍ ورد في سياق الآيات القرآنية دلالات، ولكل لفظ وظيفةٌ، وغايات.

فإذا ما ورد اللفظ مرةً واحدةً في مواضع عدة، ولأكثر من مرة في مواضع أخرى، تعاظمت دلالاته وتجلّت وظيفته، ودلنا هذا على أثره، ووجهنا إلى اعتباره، خاصة إذا وردت له اشتقاقات، وكانت له مع ألفاظ أخرى من جنسه، علاقاتُ ترادف وتفصيل وتوضيح وتداخل وتعميم وتخصيص وتناقض وتضاد، فقد احتل لفظ "الإنسانِ" دليلنا الأول إلى "الإنسانية" حيزًا ملفتًا في آيات الله تعالى البينات، وقريبًا منه، أو متداخلًا معه، أو مؤديًا إليه، وردت **المفردات التالية:**

- الإنسُ، البشرُ، الناس، و "بنو آدم".

لكي تضيف إلى "الإنسان" دلالات أخرى، ومساحات أكبر لامتداد الفهم والاعتبار.

ولا عجب، فالوحي القرآني - وله تعلق بشري أشرنا إليه سابقًا - هو مُحدِدٌ لصور الإنسانية، ومؤسس لسماتها ونوازعها وطاقاتها، هادفٌ لأن تكون "الإنسانية" في الناس كما أرادها الله عز وجل، إنسانيةً لإسعاد الإنسان.

ومؤكد أن العلاقات بين هذه المفردات والآيات، لها قواعدٌ وأصول في استنباط الدلالات واستنتاج الغايات، وذلك يحتاج لبحث لا يتوقف عند حدود الإعجاز العددي أو اللغوي أو البياني أو العلمي، وإنما ينطلق في ساحات أرحب لإعمال عقولنا في فهم أبعاد "الإنسانية".

تركيزنا سينصب على مفردة "**الإنسان**" التي وردت مُجرَّدة عن الزيادات، ووردت مَزيدة بلام الجر، ووردت بصيغة المفرد والجمع، فضلاً عن ورودها في عديد من السور القرآنية، فقد وردت سبع مرات في "الإسراء" وست مرات في "القيامة" وثلاثة مرات في "العلق"، ووردت مرتين، ومرة واحدة، ووردت بها سورة كاملة هي سورة "الإنسان" التي عرفت بين المفسرين بسورة "الدهر" و "الأبرار" و "الأمشاج" و "هل أتى" (٨)، ومؤكد أن هناك دلالات بعينها هي التي حفزتهم للوقوف عند هذه المفردات التي وردت في السورة، وأن لهذه المفردات علاقاتٌ وتقاطعاتٌ مع ما يحمل لفظ "الإنسان" من مقاصد ودلالات.

وباستقراء المواضع القرآنية التي وردت فيها لفظة "الإنسان"؛ **نجد أن سياقاتها تدور حول**:

- **خَلْق الإنسان** – أي جنس الإنسان - في أحسن تقويم، هذا هو الأساس الذي بنى عليه الوحي القرآني تصوره في خلق الإنسان للدلالة على اعتلائه أعلى درجات الخلق تكريمًا وتفضيلًا، في الهيئة

والاستقامة والتناسق والاعتدال البدني والرقي العقلي في الفهم والإدراك، والتمايز الخلقي، وفي اليقين.

- **الخَلق المادي للإنسان** من: حمأ مسنون، نطفة، سلالة من طين، صلصال كالفخار، نطفة أمشاج، علق، وهي صور من المادة، متوالية، أو متداخلة، أو متحولة، أو متغيرة، أو مؤثرة في بعضها، أو جميع ذلك كله، في دلالة على قهر "النزوع المادي" في الإنسان، وفي إشارة إلى أن أعظم الابتلاءات التي تترصد الإنسان على الأرض إنما مصدرها هذا النزوع المادي من خِلْقته الذي يشدَّه للأدنى في إنسانيته.

- **تقرير لصفات الإنسان** من أنه: ضعيف، لئيم ينسى الإحسان، جحود، يئوس، كفور، ظلوم، خصيم، عجول، مجادل يُكذّب بالبعث، جهول، قنوط، موسوس، هلوع، مشرك، يطغى، وفي خسر، وتقديرنا أنها صفات كل "**متطرف**" خارج عن مرادات الله في الإنسان.

- **الخلق النفسي للإنسان** في كبد، فلن تنقطع معاناته ما دام حيًا، في لفتة قرآنية بديعة، تدعو إلى التحمل والصبر والمكابدة والجهد والسعي بالخير، نيةً وأداءً، انتظارًا للجزاء الأوفى يوم الحساب.

- **توصية للإنسان** بوالديه، حيث أفرد لها الخالقُ في ذكره الحكيم، أكثر من موضع، وأكثر من سياق، وأكثر من دلالة، حتى قرنها سبحانه بأخصِّ درجات الإيمان وهي توحيده تعالى.

- **<u>أوامر إلهية للإنسان</u>** من مثل: أن ينظر مم خلق، وأن ينظر إلى طعامه، وفي كل هذه الأمور محلٌ للتدبر والاعتبار.

- **<u>الكلام في قدر الإنسان</u>** أن كل إنسان ألزمه الخالق عز وجل طائره في عنقه، مقرونًا بيوم الحساب الذي يُخرج له فيه كتاب أعماله مفصلًا، حاضرًا، حيًا، ليراه بعينيه، وليقرأه، وهذا ليفهم أنه حتمًا محاسبٌ يومًا ما، ليكون ذلك حجة عليه، أنه قد سبق وعَلِمَ وأدرك قبل أن يفعل وأن يختار، وهكذا يكون قانون "**الاستحقاق**" في الجزاء.

- **<u>أسئلة استفهامية</u>** استنكارية للإنسان عامة، وللمنخدعين بغرورهم وضلالهم على وجه الخصوص، كقوله تعالى ﴿أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، وقوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، وهي أسئلةٌ؛ غاية الاستفهام فيها هو التقرير وليس الاستعلام.

<u>وباستقراء الآيات المتضمنة لفظة «الإنسان» نجد:</u>

- أن أكثر الآيات التي ورد فيها لفظ "الإنسان" تركز على وصف هذا المخلوق.
- وأن أغلب الوصف يتركز في الصفات السلبية المؤثرة، لأنها الدالة على مفاتيح "**التطرف**" في ذات الإنسان، وهي التي تأخذ به إلى

متاهات الضلال والاستخفاف، وتوصله إلى ساحات الإفساد في الأرض.

- وأن الآيات تحث على عدم الاغترار وعدم الانخداع، وتدفع إلى اليقظة والانتباه إلى ما في طاقات الإنسان من نزوعات سلبية يمكنها أن تهلكه.
- وأن أشدَّ ما يعانيه الإنسان، إنما هو من نفسه، وليس خارجًا عنها، وكل ما هو خارج عنها، إنما هو تحفيز لما في النفس من طاقات وغرائز، هذا الخطاب تحديدًا ذاهبٌ إلى العقل للاعتبار، فيه يكتمل للإنسانية بناؤها، لعله لهذا يلفتنا النبي الكريم أن الجهاد الأشق هو "جهاد النفس"، يروي الألباني في سلسلته الصحيحة من حديث أبي ذر حين سأل رسول الله ﷺ: أي الجهاد أفضل؟

قال: أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله عز وجل (٩) فلم يهدأ المفكرون منذ بدايات الفكر عن الوقوف عند النفس للإحاطة بها واستجلاء أسرارها، من ذلك أن سقراط الحكيم قد أدرك هذا البُعد، فلم يضع أساسًا لتصوره الفلسفي عن الإنسان إلا "**اعرف نفسك**"، لأن معرفة النفس هي طريقٌ للكشف عن أبعادها وخبايا إنسانيتها، فليست الإنسانيةُ في بني الإنسان إلا طبقات، ولكل

طبقة مراتبها، ووفقاً لهذه الطبقات والمراتب تكون المفاضلة بين إنسان وإنسان.

المفاضلة بين الناس:

إن الناسَ ليسوا سواء، وكما أن تصنيفهم ضرورةٌ حياتية، فإنه أيضًا ضرورةٌ بحثية، وأساس تصنيفهم هو المفاضلة فيما بينهم، ومعايير "**التفاضل**" يصعب حصرها، وأعظمها "**الإنسانية**" التي تستحق بالفعل أن تكون الأعظم، فهي الأعم، والأبقى، والأوقع أثرًا، إذ ربما كانت المفاضلة عند بعض الناس في: الجسم، العلم، القوة، المال، الذكاء، البنين، العقل، الخُلُق، الإضافة الخيرية، الفِطنة، وأمثال هذه المعايير.

وربما أراد البعض المفاضلة بين الناس بمعايير أخرى، كالسطوة، الجاه، الغلبة في الرأي، القدرة على القهر، القدرة على التكاثر في المال، القدرة على الإقناع بقوة، القدرة على إسكات الآخرين، القدرة على تعطيل الأدلة وقلب الحقائق، والقدرة على التأثير في النساء واللَعِب بقلوبهن.

إن أمثال هذه المعايير لا تُعدُّ أساسًا للمفاضلة في الإنسانية، إنما التفاضل بالرفعة لا بالانحطاط والسفه، والتفاضل بالفهم والوعي

والعلم والإنجاز والرقي، لا بالوقيعة بين الناس، أو قهرهم، أو دحر كرامتهم.

فالإنسانيةُ درجة عُليا من الخَلْق، وهي خلاف البهيمة، وفي الإنسانية مراقي، حيث تدل مفردة "الإنسان" - وهي اسم جنس - إلى كل كائن حي مفكر قادر على الكلام المفصّل والاستنباط والاستدلال العقلي، ويقع على الذكر والأنثى من بني آدم، ويطلق على المفرد والجمع (١٠)، وهذه الدلالة تقودنا إلى مجموعة المزايا التي يشترك فيها الناس، وتحدد التباين النوعي لهذا الجنس مقابلة مع الأجناس القريبة (١١)، غير أن هذه الدلالات الاشتقاقية تضع أسس التمايز بين الإنسان وغير الإنسان، بينما غرضنا في دراستنا؛ هو فهم التمايز بين الإنسان والإنسان، فكما أن هناك "العادي" هناك "المثالي" الذي يفوق العادي بقوى يكتسبها بالتطور(١٢)، هكذا تحدد دلالات اللغة أن التفاضل في سلم الإنسانية؛ طبقاتها ومراتبها، إنما يكون اكتسابًا، حتى لو توهم البعض أن هناك من الناس من يولد مفضلًا بغير اكتساب أتاه وبغير جهد أداه، يرى ابن خلدون أنه على قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر تكون إنسانيته، بل إنه يقرر أن "من تتوالى له السببية مرات أكثر، فإن إنسانيته تكون أعلى" (١٣)، فقرن الارتقاء في الإنسانية **بأمرين متوالين مرتبطين، هما:**

- **الفكر**؛ أولًا.

- **وإعمال هذا الفكر**؛ في قدرته على تصور توالي المسببات في حياة الإنسان، حتى يصل عبر هذا التوالي إلى المسبب الأول.

وتلك زاوية فيها جِدّة، وتفرد، جعلها ابن خلدون معيارًا لقياس قيمة وقدر "الإنسانية"، فهناك من العلماء من وسّع النظر، وعدّد الزوايا والمعايير، **حيث يرى "الإنسان" أبعد من أن يكون ذلك الجسد الجامد، فهو**:

- الجثة التي شرّحها البيولوجيون
- والشعور الذي لاحظه علماء النفس
- والشخصية التي أظهرها التأمل الباطني
- والمواد الكيماوية التي تؤلف الأنسجة وأخلاط أجسامنا
- والجمهرة المذهلة من الخلايا والعصارات المغذية التي درس الفيسيولوجيون قوانينها
- والمركب من الأنسجة والشعور الذي يحاول العلماء أن يقودوه إلى الدرجات العليا في أثناء نموه مع الزمن
- وذلك الكائن الحي العالمي
- إنه ليس فقط ذلك المخلوق الشديد التعقيد الذي تحلله فنوننا العلمية، ولكنه أيضاً تلك الميول والتكهنات وكل ما تنشده الإنسانية من طموح. (١٤)

زاوية عجيبة أخرى؛ تقيس إنسانية الإنسان بالقدر الذي يساهم به في تحقيق طموح الإنسانية كلها.

لهذا ليس مستغربًا أن تنال حقيقة "الإنسان" في القرآن الكريم هذا القدر من الاهتمام، إلى درجة اعتقاد البعض "أن الإنسان بطبيعته وسلوكه ونفسيته وواجباته ومصيره، ينال اهتمامًا مركزيًا في الفكر القرآني، بالقدر الذي تنال مسألة "الله" ذاته" (١٥)، حيث يتساوى ويتوازى تعلق الوحي القرآني بالإنسان مع تعلق الوحي القرآني بالله عز وجل، لعله لذلك كان الجهد الإنساني عبر الديانات والعصور وبين الأمم، **يسير في اتجاهين متوازيين، لا ينفصلان:**

- **أولهما: فهم الخالق**
- **وثانيهما: فهم المخلوق، وتحديدًا؛ الإنسان**

ودراستنا تنصب بشكل مباشر وأساسي في اتجاه فهم "الإنسان" وقياس قدر "إنسانيته"، للاهتداء إلى معايير المفاضلة بين الناس، ولتحديد:

- هل تقع هذه المعايير ضمن منظومة التلازم بين الاتساق والتمايز؟

لأن المفاضلة في أي أمرٍ؛ إنما لا تكون إلا بمعاييرها.

وتأسيس وتصنيف ثم توظيف وتطبيق المعايير، لا يتم وفق الأهواء الخاصة والانحيازات الضيقة، كما لا يتم التفاضل استفزازًا أو استعلاءً، وإنما إقرارًا لقانون "**الاستحقاق**".

فالمفاضلة؛ هي ثمرة الفهم واليقين:

- **الفهم**؛ الذي نستمده من تجاربنا وقدر ما نُحصِّل من العلم، ومن غراس بيئاتنا فينا، وإعمال أدمغتنا، ويدعمه المنطق والدليل.
- **واليقين**؛ الذي يستشرفه الوجدان، ونستمده من انسانيتنا، ويؤيده احتياجنا الفطري أن هناك خالقًا حكيمًا، هو من يدبر الأمر كله.

فإن الفهم عملٌ بالفكر، واليقين عملٌ بالوجدان، وهما متمايزان، وعلى قدر تمايزهما، فإن بينهما اتساقًا لا ينفصم، وإن ضمان التلازم بين الاتساق والتمايز إنما نستجليه في شواهد الفكر الإنساني، **فمن هذا الفكر:**

- **ما يضرب جذوره متصلًا بدين منزل من السماء، ومنه ما لا يستند إلى دين.**
- **ما هو تقليدي ينتمي إلى عصور ولّت بظرفها الزماني المكاني والإنساني، وما هو معاصرٌ ونتلمس آثاره في حياتنا.**

- **ما صدرعن عقولٍ عايش أصحابها محمدًا وآمنوا بدعوته، وما صدرعمن عرفوا محمدًا ولم يؤمنوا.**
- **ما يلتزم فيه أصحابه مسارالعلمي الطبيعي التجريبي، وما يلتزم المسارالإنساني.**

<u>كل هذا التنوع من الفكر؛ يضعنا في مواجهة شاقة مع السؤال التالي:</u>

- هل يمكن أن يؤدي التمايز في الفكر، إلى الاتساق في بناء معايير المفاضلة، وفي الحكم على "إنسانية محمد"، أم أن هذا التنوع في الفكر يفرض بالضرورة تمايزًا في المعايير، وبالتالي اختلافًا في الحكم؟ لعل المسألة لا يجب صياغتها بهذا الشكل، حيث لا تضارب بين "التمايز في الفكر" و "الاتساق في الحكم " - أو هكذا يجب أن يكون - كما أنه لا مسوغَ لصحة حكم من الأحكام، إلا بما اعتمد هذا الحكم من حقائق، وسلك من مناهج، وأقرته ذاتيةٌ باحثةٌ سويةٌ ومنصفة.

<u>شواهد الأفضلية في إنسانية محمد ﷺ:</u>

إن ما يوثق لنا إجابة هذا السؤال؛ هي شواهدُ التاريخ منذ مولد النبي محمد وإلى الآن، نتفحصها، فهي قبساتٌ من الفكر الإنساني، تمكننا من قياس وتقدير رتبة المفاضلة التي حازتها، وتستحقها "إنسانية"؛ لها تفردٌ بين سائر البشر"، و**<u>هذه هي الشواهد</u>**:

<u>شاهدُ الرحمة:</u>

هو شاهد له خصوصيته، تتعهده "**المرأة**"، وفيه دلالاتٌ على إنسانية محمد، ما بين لحظتي الولادة بين يديها والوفاة بين ذراعيها.

تشهد أول إنسان كان بينها وبين محمد اتصالٌ بيولوجي نفسي عصبي وإنساني؛ **آمنة بنت وهب**، عندما صارحتها مرضعة محمد "حليمة" بحادثة شق صدره، حيث أجابت: أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن. (١٦)

إجابة تدعمها ثقة تامة؛ لا يفصح عنها بتلك القوة إلا من امتلك أدواتها وحقها، أسرَّت بها الذي لا يعرف إنسانٌ إنسانًا قدر ما تعرف، أمه؛ التي به حلمت، وتمنّت، حملت، وراقبت، سمعت، وأدركت، علمت فحازت الفهم وتيقنت واستقر بجوارحها اليقين، لذلك لم ينقطع ذكرُها في نفسه، حيث يغذيه سرُ الحياة التي كانت "بنت وهب" سببًا لتهبه إياه، حتى صار له الشأن الذي فهمته وتيقنته. فلما مر في عمرة الحديبية بالأبواء، أُذن له في زيارة قبر أمه، فأتاه، فأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه، فقيل له، فقال:

- أدركتني رحمتها فبكيت. (١٧)

فكان أولُ معايير إنسانية محمد؛ ذلك المعيار الذي تجسده آيات العرفان، في صيانة الرحم لأهله، وبذل الرحمة لمن رحم، ويظل نموذجًا للرحمة في البشر كافة وهي "الأم".

كما تشهد من استحقت بنسبها ومالها وبصيرتها وكمال خلقها، أن تكون من أفضل نساء العالمين، التي أرادها كثيرٌ من سادة قريش للزواج، فأبت واختارت محمدًا، المرأة التي عركت الحياة والنفوس والحوادث، فما زادها إلا حكمة وتمييزًا للناس، اختارت محمدًا لإدارة تجارتها، ثم أسرّت إليه:

- يا بن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسطتك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك. (١٨)

وكانت يومئذ أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالًا، ومن هذه أوصافها، لا تترك رجلًا هذا وصفه، فأرسلت إليه بعد أن رجع في عيرها من الشام.

قالت له: يا محمد ما يمنعك أن تزوج؟

فقال: ما بيدي ما أتزوج به.

قالت: فإن كُفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

قال: فمن هي؟

قالت: خديجة. (١٩)

امرأة فوق ما تزينت بأكرم ما تزينت به أخلاق النساء؛ فإنها تتحف ساحة "المفاضلة" بين الناس **بثلاثة أصناف من المعايير، في:**

- **اختيار الزوج**

- **وصلاح المرأة**
- **وإنسانية محمد**

خديجة الطاهرة، المقدمةُ الأولى في إنسانية محمد، المرأةُ السند، حتى قبل الرؤيا الصادقة، وقبل الخلوة، المرأة التي تثق وتتيقن وتُفرِّج وتُفْرِح وتثبت وتخفف وتهون على نصيف حياتها، وما كان محمدٌ ليجد كل هذا منها إلا لما أسبغ على بيته وأهله من ودٍ وإخلاص، وبذل من مسئولية، وهذا درسٌ من دروس النبوة يُجلّى في ضمائرنا كيف تكون الشراكة بين الرجل والمرأة، وكيف يكون الوفاء؟

فالمرأة لا تسعها الدنيا - على رحابتها - قدر ما يسعها احتواءُ رجلٍ مسئول، لا يمسها يومًا بسوء أو إهانة.

كانت خديجة "أول من آمن بالله ورسوله وصدّق ما جاء به، فخفف بذلك عن رسول الله، لا يسمع شيئًا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرّج الله عنه بها" (٢٠)، ولم يكن عونها لمحمد وقفًا على حفظ العشرة وأسرار النبوة، وإنما يمتد لتدلنا على معالم مبهرة من إنسانيته، إذ تقول لمحمد أول نزول الوحي:

- والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. (٢١)

توصيفٌ **لمن فهمت و أيقنت** أبعاد إنسانية من اختارته زوجًا، فالمرأة حين تدقق في اختيار رجلها، تملك حكمة الاختيار، وتحبه، وتأمن صحبته، ولا يملأ عينيها أحدٌ سواه، فتُسعده، وتُمُده بروحها، ولا تصفهُ إلا بحق.

كما تشهد من مال قلب محمد لها فعدل فيما سواه بين نسائه واستحوذت وحدها عليه، وقد سألت الرسول يومًا:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ادع الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر. فدعا لها بما أرادت، وعلم قدر فرحها بدعوته، فقال لها:

- أما والذي بعثني بالحق، ما خصصتك بها من بين أمتي، وإنها لصلواتي لأمتي في الليل والنهار، فيمن مضى منهم، ومن بقي، ومن هو آت إلى يوم القيامة، وأنا أدعو لهم والملائكة يؤمنون على دعائي. (٢٢)

إنسانية متفردة: تتجاوز الأنا، وتتخطى الفردية، وتسمو على العصبيات المغرضة والنعرات الضيقة، وتكرس الروح الجماعية، حيث النظر إلى الأمة، في تعبيرٍ بليغٍ عن خصوصية طُبعت عليها إنسانية محمد، ورتبة عليا وسمة راقية لا ينالها إلا عظيم، أدركتها **عائشة**، فلم يغضبها أن شملت دعوة النبي لها أمة المسلمين جميعًا، فقد خَبِرَت إنسانيته وتيقنتها وروت كثيرًا من آثارها، إذ تروي كتب الصحاح عن عائشة، أنها قالت:

- ما خُيّر رسول الله بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل. (٢٣)

فيدلنا الوصف على قواعد للعمل، هي معاييرٌ، ربما تبدو عند البعض متباعدة، لكنها محكمةُ الاتصال، وفيها توجيهٌ للعقل والإرادة على إرادة "الاختيار"، وفيها ترويضٌ للنفس على تنقية إيمانها، **كما أنها موجهات للإنسان عند الفعل؛ أن:**

- **يتأمل خياراته**
- **ويتبين أفضلها خيرية**
- **ويثق باختياره بوعي ورويّة**
- **ويحسم إرادته**
- **ويتجنب ما ينطوي على عُسرٍ ورهق**
- **ولا ينتقم إلا لله تعالى**

فالدين الحق لا يصطدم مع نوازع النفس الإنسانية على طول الخط، لأن النفس لها أن تغضب وتنتقم كما لها أن ترضى، إذ ربما كان الغضب والانتقام من ظالمٍ أو متعدٍ أو غاصبٍ دون أن يخالط ذلك إثمٌ أو تعدٍ على ما شرعه الدين والقانون وعُرفُ الأسوياء، ربما كان ذلك إنفاذًا لمقاصد الشرع.

وتُعْلِمُنا أم المؤمنين عائشة بالرتبة العليا في إنسانية "الغضب"، حين سُئلت عن خلق محمد ﷺ، فقالت:

- كان لا ينتقم لنفسه ولا يغضب لها، إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون لله تعالى ينتقم.(٢٤)

- لم يكن رسول الله فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.(٢٥)

لنتبين أن معيار التمكين للعفو بين الناس، يتجلى في:

- أن نعفَّ اللسان عن فُحش الكلام
- وأن نحفظ للناس وقارهم في مجتمعاتهم وبين أقرانهم.

لأن أقل درجات التمكين في العفو؛ هو الصفح وتجاوز رد السيئة بمثلها.

إن ما حازت عليه عائشة من فطنة واستنباط: مكّناها ليس فقط من تأسيس وتصنيف المعايير في إنسانية محمد، وإنما في تعليلها أيضًا، يروي لنا البخاري في صحيحه ما ذكرته عائشة عن النبي من أنه "حُبب إليه الخلاء" (٢٦)، فما كانت إنسانية محمد لتميل إلى الوحدة والانفصال عن أهله ودعوته ومجتمعه وما يحدث فيها، **فالوحدة داُء والخلاء دواء**، وفي الخلاء محاسبةٌ وتأملٌ وتحفيزٌ للنفس إلى الخير، وفي الوحدة عزلةٌ وإضمارٌ للكراهية وتكريسٌ

للأحقاد والاستعلاء، وما عاش محمدٌ أبدًا بين الناس إلا متسقًا معهم تمام الاتساق، رغم تمايزه عنهم.

شاهدُ الصُحْبة:

في هذا الشاهد؛ شهادة من صحب محمدًا في حياته، وآمن بدعوته، حيث يمدنا هذا الشاهد بكشف لأبعاد جديدة في إنسانية محمد، تدل عليه وقائعٌ، جاءتنا في نصوص متواترة، اتفقت في روايتها كتبُ السيرة مما وصف به ربيبُ محمد "هند بن أبي هالة" شمائل النبي، إذ ينقل منها صاحب الشفا، **أن منطقه كان**:

- دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم، فضلًا، لا فضول فيه ولا تقصير. (٢٧)

وينقل منها صاحب عيون الأثر، **أن سكوته كان**:

- على أربع: الحلم والحذر والتقدير والتفكر، فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع إلى الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له الحلم في الصبر، فكان لا يغضبه شيء يستفزه، وجمع له في الحذر أربعٌ: أخذه بالحسن ليقتدى به وتركه القبيح ليُنتهى عنه، واجتهاد الرأي بما أصلح أمته، والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة. (٢٨)

فحُق لنا أن نتدبر إنسانية إنسان هذا هو حال منطقه وهذا هو حال سكوته، إذا اجتمعا في واحدٍ ممن يسوس الناس اليوم، أو يدير شأنًا من شئونهم؛ كمؤسسة أو مهنة أو أسرة، كيف يكون نتاجُ هذا الرجل ومن معه، وكيف يكون تحضّرهم وعملهم وأخلاقهم وخططهم وعلاقاتهم وإنسانيتهم، فرادى أو مجتمعين؟

إن تحليل حالي المنطق والسكوت يدلنا على التمايز الحادث بينهما، ويدلنا أيضًا على اتساقهما، ويجمعهما تلازمٌ في صفة عظمى لم يؤدها بحقها أحدٌ، درجة ما أدّاها محمد، إلا لانَ الناسُ له طواعيةً وخضعوا ورضوا، حيث يجدون فيه انشغالًا دائمًا بهم وبحوائجهم، مثلما يجدون إخلاصه وتقديره لإنسانيتهم، ذلك التقدير الذي يدلنا عليه ما شهد به صحابته، يقول أبو هريرة:

- ما رأيت أحَدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ. (٢٩)

ويحدثنا ابن هشام أن الحباب بن المنذر قال قبل موقعة بدر:

- يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم، فننزله، ثم نُغَوّر ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. (٣٠)

فإن إبداعات الناس في الرأي والفكر والأداء تتجلى وتصدق وتبدع، متى كان هناك من يهيئ لها أسبابها، ويوقِّر مبدعيها، حتى يملك بسعة صدره شغافَ قلوبهم، لذا فإن سعد بن معاذ لما رأى كثرة استشارة النبي أصحابه قبل يوم بدر، يوثق ولاءه للنبي وهو يعبر عن حال الأنصار جميعًا، فيرجوه قائلًا:

- صل حبل من شئت واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذته منا أحب إلينا مما تركت علينا، وما ائتمرت من أمر فأمرنا لأمرك فيه تبع. (٣١)

فكان رجاؤه طاعةً لا تشوبها شائبة ضعف أو هوان أو انكسار، طاعةً لا يستحقها بهذا القدر إلا قائدٌ إنسانٌ، تسري إنسانيته بين جنده بالرحمة لا بالشدة والبطش، فكثيرًا ما أسس كثير من قادة الجماعات والتنظيمات لأفكار - دينية أو سياسية - وكانت غايتهم أن يستحوذوا على طاعة مريديهم من الناس، لكنهم بعد زمن أضاعوا ما أسسوا له، لأنهم شيدوه - وهم يقصدون - على الكذب والخديعة.

هكذا تدلنا هذه الوقائع على حقيقة مؤكدة، أن الطاعةَ لا تكتمل بحقٍ في أمر من الأمور؛ إلا إذا انبنت على الصدق، وقد تجسدت هذه الدلالة في صدق محمد: كنبيٍ، قائد، معلم، والد، زوج، أخ، صديق، وإنسان له رسالةٌ عُظمى.

جاءت وفادات القبائل من أنحاء الجزيرة العربية تستوضح رسالة الدين الذي أتى به محمد، ومنها وفادة بني سعد بن بكر بن هوازن، أرسلوا منهم "ضمام بن ثعلبة" وافدًا يستخبر عن الدين الجديد، حتى إذا لقى محمدًا، قال:

- إني سائلك فمشددٌ عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك

فقال: سل عما بدا لك

فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟

فقال: اللهم نعم

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟

قال: اللهم نعم

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام، فريضةً فريضة، وهو ينشده في كل واحدة منها كما ينشده في التي قبلها، فقال الرجل:

- آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي. [٣٢]

هكذا؛ **حيثما يكون الصدق، تكون الطمأنينة، ويستقر الإيمان في النفس**، وكان ذلك دأبُ كل من استيقن الصدق في دعوة محمد، فآمن بهما.

يحكي لنا موسى بن عقبة في «المغازي» على لسان جعفر بن أبي طالب فيما قال عن الإسلام ونبي الإسلام، أمام النجاشي، في أصعب لحظة يكون فيها الإنسان إلى الموت هو أقرب ما يكون منه إلى النجاة:

- جاءنا به رجلٌ من أنفسنا قد عرفنا وجهه ونسبه، بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا، فأمرنا بالبر والصدق والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به.[٣٣]

في إقرارٍ حاسمٍ ينطق بما تحمله أفئدة وعقول جمع المهاجرين معه إلى الحبشة، فإن صِدْقَ الرسولِ صَدَّقَ الرسالة، حتى لم يعد لغير الصدق سبيلٌ في ساحة الإيمان بين محمد ومن اهتدى بهديه ورسالته.

يقول كعب بن مالك بعد حادثة تخلفه عن غزوة تبوك، ثم توبة الله عليه:

- والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، ألا أكون كذبته فأهلك كما يهلك الذين كذبوا.[٣٤]

هكذا أثرُ صدق محمد في الناس، يُروى عن أبي سفيان بعد إسلامه أنه قال حين حضرته الوفاة:

- لا تبكوا عليّ فإني لم أتنظف – أتلطخ - بخطيئة منذ أسلمت.[٣٥]

__وفي عبارته دلالتان__:

الدلالة الأولى: راجعة إلى أثر النبي في كل من آمن بصدق دعوته

والدلالة الثانية: راجعة إلى أثر الإسلام فيمن استقر هذا الإيمان في قلبه

والأثران متمايزان، ومتسقان، ودالان على معيار الصدق في الرسالة وفيمن حملها إلى الناس، ذلك الصدق الذي كان جبلَّة وطبعًا أصيلًا يؤسس لإنسانية محمد، فامتدت آثار هذا الصدق في جميع أخلاقه، حيث تتبدل المواقف والأشخاص ولا يتغير صدقه، مهما اختلفت الأحوال والمواقف، حتى وهو يرد أذى المشركين عن الضعفاء من صحابته، وحين يحمل حفيدته على عاتقه، ومع أهل بيته، ومع خدمه، __يقول أنس بن مالك__:

- خدمته نحوًا من عشر سنين، فوالله ما صحبته في سفر ولا حضر لأخدمه إلا وكانت خدمته لي أكثر من خدمتي له. (٣٦)

ويروي ابن سعد في طبقاته عن أبي قتادة، أن رسول الله ﷺ كان يصلي وأمامة بنت أبي العاص - ابنة زينب بنت رسول الله – على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا قام حملها (٣٧)، ويسجل البيهقي على لسان أنس بن مالك "ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله" (٣٨)، فليست هناك علامةٌ فارقةٌ في إنسانية إنسان قدر ما يدل عليها فعله ورحمته بصغاره، ففي "**الرحمة بالصغير**" تتجلى كمالات

الإنسانية، فهي اللبنة الأولى لصناعة شاب يكبر وهو يستشعر آلام الناس ويقدّر مواجعهم، ولا تغيب عن نفسه لحظة أنه مسئول، حتى إذا كبر وتزوج وصار راعيًا لبيت وزوج وصغار، أدّى فيهم ما يُرضي الله ورسوله، بعد أن صرنا نسمع ونشاهد الآباء الذين يلحقون بأولادهم العاهات، وربما الموت، لأتفه الأسباب، بل ومن غير سبب، وآخرين لا يملك أحدهم أقل تبعات المسئولية في بيته، بل ويكيد بأهله، بدعوى أنه "الرجلُ" صاحبُ القوامة، وهو لا يملك – بفعله - أيًا منهما: لا الرجولة ولا القوامة.

<u>شاهدُ الفِطْرة:</u>

هذا الشاهد يستحق التوقف عنده **<u>مرتين اثنتين</u>**:

<u>الأولى:</u> وقفة بحثية: نتفحص فيها بروّية، الأبعاد الجديدة التي سيضيفها هذا الشاهد إلى معايير تقدير إنسانية محمد.

<u>والثانية:</u> وقفة تأملية: تضيف إلى الأولى ولا تنتقص منها، لأن في هذا الشاهد نتتبع شهادات من عرف محمدًا ولم يؤمن بنبوته ولا بدعوة الإسلام.

فليس هناك أعظم من شهادة إنصاف تأتيك من مُبغضٍ كارهٍ لنجاحك، أو تميزك، أو خُلقك، أو إيمانك، أو تفردك، إنها تساوي - في قدْرها وأثرها - أضعاف شهادة من أحبك، إنها تعني أن من قالها:

ما وجد فيك ما يستحق البُغض، فما واتته الاستطاعة أن يدّعي عليك ما ليس فيك، فجرى الحقُ على لسانه بدافعٍ من فطرته الإنسانية دون أن يتعمد هذه الشهادة.

<u>السطر الأول</u>: في هذه الشهادة يأتينا ممن تربى محمد على يديه، ونال منه حبًا فاق حبه لأولاده، إنه عمه أبو طالب الذي ما تواني عن حمايته، رغم أنه لم يؤمن بدعوة محمد، وذلك حين سعى إلى نقض صحيفة المقاطعة التي تعاهد عليها كفار قريش في حصار بني هاشم، فذهب إلى سادة قريش يُعْلمهم أن محمدًا أخبره أن الأرضة أكلت ما في الصحيفة ولم يبقْ فيها إلا اسمُ الله عز وجل، ويحسم شهادته في محمد قائلًا:

- إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني أن الله عز وجل برئ من هذه الصحيفة التي في أيديكم. (٣٩)

يؤكد أبو طالب وقد عاش محمد ﷺ في كنفه ورعايته سنوات طوال؛ ما اتفقت عليه مصادر السيرة كافة، أن المعيار الأول لصحة النبوة، هو الصدق، الذي استحق محمد أن يُعرف به في مكة حتى قبل بدء تكليفه بالرسالة.

<u>والسطر الثاني</u>؛ ما شهد به أبو سفيان - قبل إسلامه - يوم فتح مكة، حين توالت أمامه جموع القبائل من المسلمين، فقال للعباس عم الرسول:

- يا أبا الفضل لقد أصبح ملكُ ابن أخيك الغداة عظيمًا

قال العباس:

- يا أبا سفيان إنها النبوة

قال:

- فنَعم إذًا. (٤٠)

<u>والسطر الثالث</u>؛ يأتينا مما ترويه المصادر فيما وقع بين أبي سفيان وهرقل عظيم الروم، وعلينا أن نتأمل عبارات هرقل وهي "**استنتاجات**" من أقوال أبي سفيان وهي "**حقائق**" فلا نجد إلا اتساقًا متينًا بين الحقائق "المقدمات" والاستنتاجات "النتيجة"، في هذه الحجة المنطقية تصنيفٌ مُبهر لمعايير إنسانية محمد، تنساب في حوارٍ بين اثنين، لكل منهما شأنٌ في قومه، الأول وهو السائل يدين "بالمسيحية" ويدافع عنها، والثاني وهو المجيب "وثني" يعبد الأصنام، وكان هذا هو حوارهما كما يرويه البخاري:

- كيف نسبه فيكم؟ ... هو فينا ذو نسب
- فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ ... لا
- فهل كان من آبائه من ملك؟ ... لا
- فأشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ ... بل ضعفائهم
- أيزيدون أم ينقصون؟ ... يزيدون

- فهل يرتد أحدٌ منهم لسخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ ... لا
- فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ ... لا
- فهل يغدر؟ ... لا
- فهل قاتلتموه؟ ... نعم
- فكيف كان قتالكم إياه؟ ... الحرب بيننا سجال، ينال منا وننال منه
- ماذا يأمركم؟ ... يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا بيه شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. (٤١)

فور أن ينتهي الحوار، يصدر قيصر الروم الحكم "**النتيجة**" في إنسانية محمد، وهو يعبر عن نبوته وبشريته معًا، **إذ يقول**:

- لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى. (٤٢)

حوارٌ بليغ، لتواتره، ومنطقيته، ليس فيه تهوين أو تعظيم، **ويدل على**:

- اهتمام عظيم الروم آنذاك بأمر الرسول والدين الجديد، فليس مستبعدًا أن هرقل قد اطلع على نصوص الإنجيل التي تبشر بمجيئ محمد، أو سمعه من أحد القساوسة المخلصين، وإلا كيف نفسر اهتمامه وطلب السؤال عن محمد؟!

- إن هذا الحوار قد جاءنا عن ابن عباس؛ الذي أخذه مباشرة عن أبي سفيان بعد اسلامه، فلم يلجأ أبو سفيان في رواية هذا الخبر إلى التلفيق أو الكذب، **في مناسبتين**: الأولى أمام هرقل خوفًا من بطشه إن اكتشف كذبه إن كذب عليه، والثانية أمام ابن عباس لحسن إسلامه.
- إن هذا الحوار يفصحُ عن تسلسلٍ وترابطٍ منطقي، إذ من غير المعقول أن يكون نتيجة لحظة اللقاء وعفوية الحوار، ما يدل على أن هناك تشاورًا وتباحثًا جدّيًا قد حدثا قبل أن يصير الحوار، فضلًا عن أن مجريات هذا الحوار تحمل في طياتها؛ إجمالًا بديعاً لنظرة الإسلام في بناء العقيدة والأخلاق، وفيها كشفٌ عن مصير الإنسان وسعادته، **مما يدفعنا إلى التساؤل**:

- هل أضافت جهود الأفراد المعنيين والمؤسسات والدول الحديثة منذ نشأتها في حفظ كرامة الإنسان؛ من التشريعات والقوانين فوق ما يعطينا هذا الحوار؟

في السطر الرابع: ينقل لنا السيوطي ما ذكرته كتب السيرة من شهادة الوليد بن المغيرة، وكان من عُتاة المشركين الكارهين للإسلام ونبي الإسلام، إذ أتته قريش ترجوه أن يقول في محمد ما يدل على أنه منكرٌ له وكاره، بعد أن رقّ حين سمع القرآن من فم النبي محمد،

فأقسم لهم بالله أن ما سمعه ليس شيئًا من الكهانة ولا الجنون ولا الشعر ولا السحر، وليس منهم من هو أعلم منه بهذا كله، **ثم قال**:

- **والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه.**[٤٣]

في شهادة الوليد – وهو عدوٌّ لدود – أن محمدًا:

- **لا يكذب**
- **ولا يدّعي**
- **وما يتلوه من قرآن، هو فوق إبداع البشر، وما هو إلا من عند الله**

ما يدفعنا إلى أن نتساءل:

- كيف نحكم على من شهد لمحمد وما يتلو من القرآن هذه الشهادة؛ ولم يؤمن؟!

هل هناك إجابة تبرر هذا التساؤل أوفى لعقولنا من "**أثر الجاهلية**" التي لا علاقة لها بجهل - كما يتوهم البعض- وإنما بعقلٍ يعرف الحق ويعاند ويكابر، ونفسٍ تعلمُ الصدق وتراوغ وتناور، فليست **الجاهلية** زمنًا بعينه أو أشخاصًا بعينهم أو بيئة بعينها، إنما هي "**منظومة من الصفات**" متى اجتمعت كانت الجاهلية، وبانَ أهلُها، فأولُ أمرها عصبيةٌ مستكبِرةٌ، يقويّها الحقد، ثم غلبةُ الأنا واتباع الهوى، والسعي

لمنافع خاصة، وإنكار الحق، وختامها في العزة بالإثم، فلا تفيض نفوسُ أصحابها إلا ظلمًا وباطلًا.

إن أخطر ما في الجاهلية أن تتعهدها فئةٌ قادرةٌ غادرة، فلم يكن الوليد بن المغيرة وحيدًا في جاهليته، فقد أورد ابن هشام في سيرته عن النضر بن الحارث، أنه أنكر أن يكون الرسول ﷺ ساحرًا ولا كاهنًا ولا شاعرًا ولا مجنونًا - كما ادعت قريش - **وقال لهم**:

- انظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمرٌ عظيم. (٤٤)

هي دعوة للتدبر، لكنها وجلة، مترددة، ولا يلجُ الإيمان ويستقر يومًا في ضمائر غير مطمئنة، غير أن في هذه الدعوة دلالةٌ وعظة، أن هناك دائمًا - مع غلبة المنكرين للحق - أثرًا من الإنصاف بحق النبي محمد، يُجريه الله على لسان أحدهم، فإلى مثل هذا دعا عتبة بن ربيعة، وكان سيدًا في قريش، حين قال:

- يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه.

ثم يقرر نتيجة محددة:

- فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأٌ عظيم

ثم عاد يرجوهم:

- فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

فكان جواب قريش الذي ما كان إلا إنفاذًا لجاهليتهم:

- سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. (٤٥)

ولم تكن أخلاق الجاهلية هذه حكرًا على عُبّاد الأصنام، بل امتدت حتى شملت بعضًا من أهل الكتاب من يهود المدينة، إذ يروي موسى بن عقبة في "**المغازي**" ما قاله أبو ياسر بن أخطب من اليهود - وهو عم صفية زوج النبي محمد - عندما سمع من محمد وحادثه ثم رجع إلى قومه، وقال لهم:

- يا قوم أطيعوني فإن الله عز وجل قد جاءكم بالذي كنتم تنظرون، فاتّبعوه ولا تخالفوه. (٤٦)

هكذا تكون سوءات الجاهلية - وهي فوق ما تُحصى- أقلّها أن تدفع صاحبها إلى رهان زائغ بدلًا عن الإذعان للحق، إذ لو ترك أحدهم الأمر لفطرته لأقرَّ هذا الحق دونما ارتباك أو تردد، وليس هذا ببعيد، فقد تجلى واضحًا فيما قالت أم معبد الخزامية - قبل أن تُسْلِم - حين مر بها النبي محمد في طريق هجرته إلى يثرب، يستقي منها الماء واللبن، **فوصفته بأنه:**

- أجمل الناس من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب. (٤٧)

في تعبير فصيح عن التلازم بين الجمال والحلاوة والحسن، رغم التمايز بين الأوصاف الثلاثة، وقد جمع بينها تلازمٌ وانسجامٌ واتساقٌ

دقيق، في الخِلقة والخُلُق، وهذا واحدٌ من تجليات الإنسانية في محمد.

شاهدُ النَصَفَة:

ننتقل مع هذا الشاهد إلى رؤية عصرية صادرة عن توجهات متباينة بين أصحابها، لتمدنا بنماذج من المعايير لقياس قدر المفاضلة في إنسانية محمد عمن سواه من البشر، لكن من منظور آخر، أثقلته التجربة، وأسعفته الدقة والتصنيف، وارتقى به العلم، وحصنته تطبيقات العلم، **نماذج يسودها التمايز بين أصحابها من حيث**:

- خلفياتهم العلمية، تخصصاتهم الدقيقة، طرائقهم البحثية، بيئاتهم، تنشئتهم، رصيدهم النفسي، حصيلتهم الأخلاقية، وزادهم الإيماني.

لنرى: هل يوصل هذا التمايز الحادث بينهم، إلى اتساقهم في الحكم على إنسانية محمد؟

تبدأ سطور هذا الشاهد بتأسيسٍ متفردٍ لمعايير إنسانية محمد، من مفكرٍ له رأيٌ حر، وله موقفٌ، ارتضى العلم مقياساً ومنهجاً، والإنصاف غاية، نال من التفلسف - بالدرس والتحليل والممارسة - درجاته العلى، فما زاده التفلسف إلا بغضاً للتعصب، يجأر بمسيحيته ويقرر: لن أنحاز عنها لسواها، لم يُصدر حكمه في إنسانية محمد إلا بعد فحصٍ وتروٍ وتدقيق، **وهو ينظر بعينين**:

الأولى: لحقائق التاريخ ومصادر السيرة وآيات القرآن الكريم

والثانية: لواقع الأحكام غير المنصفة لدى كثير من المستشرقين في الغرب تجاه نبي الإسلام والإسلام عمومًا. يُصرّ هذا الباحث على حكمه، وهو يعلم جيدًا ماذا سيجرُّ إليه وعليه هذا الحكم، لكنها نقاوةُ الإيمان الصحيح بالله الواحد إذا ما تمكنت من شغاف القلب، ملأته حبًا في الله ودينه، ليصغر في عينيه ما سيعاني ويكابد.

نظمي لوقا: الباحث الفلسفي الأديب، الذي كبر على الصغائر، وآثر كلمة الصدق، فما قال إلا ما علم، وقال كثيراً، وقد أدركه ببحث وعلم، وكلما مر عليه زمنٌ زاد تشبثًا بما قال، وفهم وأيقن، فانتهى إلى أحكامه في محمد، وفي التوحيد، وفي جوهر العقيدة الإسلامية، وكان تركيزه كبيرًا في دراسة آيات القرآن من أخلاق وعقائد وأبعاد إنسانية، إنه يؤمن "أن محمدًا لم يمكِّن لنفسه، ولا لذويه، وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوَّى ذلك كله بالأرض" (٤٨)، فمن أجلّ مراتب الإنسانية أن تسمو روح الإنسان وفعله وخلقه ومعاملاته، فوق فرديته، وفوق خاصته من الناس والمصالح، وفوق ذويه وصحبه، من أجل التمكين لكرامة الناس كافة، دونما تمييز.

ويأتينا السطر الثاني في هذا الشاهد ممن يجمعهم الاتساق في الإيمان بمحمد ورسالته، ويتمايزون: بيئيًا، فكريًا، اجتماعيًا، وثقافيا.

إذ يرى الفيلسوف الفرنسي **جارودي**: الذي تقلّب بين المسيحية والشيوعية ثم اعتنق الإسلام؛ أن محمدًا يمثل الخاتمية في دين الله على الأرض، لأنه لم يدَّعِ أبدًا أنه يجيء بدين جديد، وإنما "يواصل ويجدد ويتمم العقيدة الأصلية التي كان يجد لها في عقيدة إبراهيم التعبير الأمثل" (٤٩)، وكأنما أراد جارودي أن يوجه إلى أن الخاتمية لا تقتصر على العقيدة وحسب وإنما تؤسس للأخوة في الإنسانية والوحدة في القيم؛ بين كل الناس.

ويؤمن المستشرق البريطاني **بودلي** بأهمية النموذج في الدين، حيث إن ما لا يجب أن ننساه في الإسلام هو محمدٌ نفسه، لأنه هو "من جاء بالإسلام، وأمده بقوته الدافعة، وجعله يزدهر وينمو خلال الثلاثة عشر قرنًا، منذ أن عرضه أول مرة على العرب" (٥٠)، إنه يعتقد أن من أبرز معايير تقدير إنسانية محمد هو أن محمدًا أصبح النموذج: إيمانًا وتطبيقًا، ليرينا كيف يكون المثالُ، وكيف تصير القدوة هما الضامن بين الناس لإحياء الدين، وبعث أحكامه وأخلاقه وعباداته وإبداعاته في حياة الناس، لعله لهذا السبب وَثَقَ كثيرٌ من الناس في الإسلام، لأن "عمل الخير أصبح الميزة الأعظم في مجتمع المدينة بعد هجرة النبي محمد إليه، حيث لا جشع أو أنانية، بل التعاطف والاهتمام بكل ما هو حي" (٥١)، ولعل ذلك كان هو الدافع الذي حفّز الباحث المسلم "ديدات"؛ الذي أثمر جهده وعمره بحثًا في مقارنة

الأديان، ليقرر أن الإسلام وحده هو "الذي يستطيع أن يوحد بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ويجدوا فيه التوافق والملائمة". (٥٢)

نصل إلى ختام هذا الشاهد في إنسانية محمد مع من جمعهم في تقديرها إعلاءُ لقيمة الإنسان، حيث يقول **إقبال**: الدين لا يقبل التجزئة، فهو ليس فكرًا ولا شعورًا مجردًا ولا فعلًا مجردًا، إنه تعبيرٌ عن الإنسان بكليته"(٥٣)، وفي تعبيره دقةٌ بالغةٌ لأنه انتبه جيدًا إلى التطابق والانسجام بين الدين والإنسان، فما جاء الدين إلا للإنسان، وما استقر دينٌ ولا ضاع بين الناس إلا بفعلٍ إنساني، ولا يكون الإنسانُ إنسانًا بحق إلا بدينٍ من السماء.

إن الدين الحق هو الذي يمهد للإنسانية مواضعها بين الناس على الأرض، لذلك فإن محمدًا قد "ارتفع بالإنسانية إلى أسمى قمة تحلم بها، حتى إنه لو لم يوجد لاضطر المؤرخون إلى القول بأنه لم يوجد إنسان من هذا الطراز ولن يوجد" (٥٤)، هذا ما أكده صاحب "الإسلام يتحدى"، إنه يجزم بتفرد نموذج إنسانية محمد وبأنه مثالٌ هو الأكمل الذي يستطيع العقل البشري أن يتصور وجوده بالفعل، لأن هذا المثال قد صار وأدرك من حوله بلا استثناء أبعاد إنسانيته، فقد كان "لا يشعر بالراحة إلا بعد أن يتأكد من راحة الجميع، وكان يتوقف في الطرقات ليستمع إلى أحزان ومآسي الفقراء والضعفاء والمنكوبين، وكان يقصد منازل أشد أتباعه فقرًا، ليخفف عنهم،

ويريح قلوبهم" (٥٥)، فهل يمكن أن يكون هناك في رحمة الإنسان بالإنسان؛ أبعد وأرقى وأنبل ممن ينصت إلي الناس؛ يستشعر وجعهم ويواسيهم؟!

شاهدُ الذوات السويَّة:

يجمع أصحاب هذا الشاهد ذاتيةٌ علمية سوية من التقدير لنموذج الإنسان الذي يُمثله محمد، هم في هذا متسقون غاية الاتساق، لا تمس هذه الذاتية حياديتهم في الحكم، لأنها ذاتيةٌ "غير متطرفة"، وحكمها في إنسانية محمد مبنيٌ على حقائق وأدلة، ومستنبطٌ استنباطًا منهجيًا، كما أنهم متسقون في الانتماء لدين محمد، وفي الانتماء نفسه للأرض واللسان والدم والتاريخ، غير أنهم متمايزون في: أنماطهم الفكرية، ميولهم العلمية، مشاربهم التربوية، ومهاراتهم في تحليل الخيوط الدقيقة التي شكلت نسيج إنسانية محمد.

يرى المؤرخ **حسين مؤنس**؛ أن قيمة المساواة - كما جسدتها أفعالُ محمد - كانت الأساس الأول في بناء إنسانيته، إذ " لم يرض رسول الله لصحابته إلا المساواة بنفسه الكريمة، برغم أنه كان نبيهم وهاديهم ورائدهم، ولو شاء أن يكون أميرهم أو سيدهم لكان" (٥٦)، فالمساواة عند محمد هي أداءٌ وفعلٌ، يُبطل - دون عناء - نوازع الإنسان للسيادة والسيطرة والنفوذ، ولم يحققها محمدٌ بين الناس إلا بأخلاقه، حيث إن من أعظم الخوارق التي كانت لمحمد ﷺ أخلاقه، رغم أنه من بشرٍ

من لحمٍ ودمٍ وأعصاب [٥٧]، لكن بشريته لم تتعارض لحظة مع نبوته، إذ كان بينهما اتساقٌ وتناغمٌ إلى درجة التمام، وما شابها نقص أو عيب في تفعيل المساواة بين الناس، وكان هذا شأن أخلاقه كلها، فإننا في واقع حياتنا؛ إن نجد كريمًا غاية الإكرام نكتشف أنه دون ذلك في خِصلة أخرى، وهكذا الناس، لكن محمدًا في عامة صفاته، نال الكمال بشقيه البشري والنبوي، وتأسست نموذجية الخُلُق عنده عبر محدداتٍ؛ هي معايير، يأتي من بينها "**الاتساق**" الذي ساد بين ظاهره وباطنه، فالوجه هو التصوير الحقيقي لباطن الإنسان، وقد كان "صفاء نفس النبي على وجهه ظاهرًا ويعرفه الناظر لأول وهلة" [٥٨]، **مما دعا باحثًا معاصرًا أن يعلن:**

- أروني عظيمًا جرؤ أن يغامر فيقول للناس " هاكم سيرتي كلها، وأفعالي جميعًا، فاطّلعوا عليها وأرووها للصديق والعدو، وليجد من شاء مطعنًا عليها". [٥٩]

ولم يكن السبيل إلى امتلاك نموذج الكمال الإنساني في خلق محمد إلا عبر مجاهدات أفاضت بها على نفسه الشريفة كمالات نبوته، كان أولها في مجاهدته لنفسه، ثم مع جفاء العقول التي سادت مكة وجزيرة العرب آنذاك، وكان تمامها في الوفاء بمقتضيات الأمانة في تبليغ الدعوة، **ومن أدوات تلك المجاهدة:**

- **إرهاف السمع** إلى الكون، وتجريد قلبه من الشواغل، وتخليص همته من التشتت في توافه الأمور، والخروج بنفسه من شد وجذب الرغبات والنزوات والشهوات (٦٠)، فإن للكون لغةً؛ لا يعيها إلا من صفا قلبه وسما عن صغائر الدنيا.
- **قلة الكلام**، وطول الإنصات، والميل إلى الجد من القول (٦١)، هذه الأداة إن تمكن منها إنسان؛ فإنها تعبر به خارج حدود فرديته، حيث يتطلع إلى آفاق الناس من حوله، والناس جميعًا، فكثيرٌ من الفضائل بين البشر إنما يكون وراءها ودافعها؛ قدرٌ عالٍ من حُسن الإنصات للآخرين.
- **كراهية سفك الدماء ولو بالحق** (٦٢)، فكيف إذا كان هذا الدم يُسفك لباطلٍ؟!، إذ نشهد اليوم استهانة بدم الناس وأعراضهم وكرامتهم دون حق، إن محمدًا يُقرُّ قاعدةً لم يُقرُّها أحدٌ قبله "**أن للدم حرمةً**"، أقرَّها في خطبة الوداع فيما رواه كبار الصحابة: إن دماءكم وأموالكم وأعرضكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا (٦٣)، "**فحرمة الدم**" لا مُسوغَ للتعدي عليها، حيث أصبح لسفك الدم – دون حق - أكثر من مسمى وأكثر من سببٌ لتعليله وتبريره، أسوأ ما في هذا التعليل أن يُقال أنه "جهادٌ" و "دفاعٌ" عن الدين، ولم يفعله محمدٌ ﷺ في حياته، وما كان

يغضب كغضبته لهذا الإثم، الذي يتفشى اليوم بين الناس، وتظهر له نماذج لم تشهدها أخس المجتمعات انحلالًا فيما مضى، فصار الولدُ يذبح أبيه أو أمه، والأخ يسفك دم أخيه أو أخته، والأم تُنهي حياة رجلها أو تخنق ولدها، من أجل كبيرة من الكبائر.

- **تعقب قسوة القلب** أينما كانت، إذ كان محمد يؤمن "أن قساوة القلب هي المسئولة عن الخوف الذي يسلطه بعض الناس على بعض" (٦٤)، فقد عرف محمد الداءَ وشخّصَ العلة، وتتبع أثرها ليداويها، ببذل الرحمة.
- **حب المرأة**، ومصارحتها بحبه مُعبرًا عن عاطفة خيّرة (٦٥)، لأنه أدرك أن المرأة كمالٌ للرجل، مثلما هو كمالٌ لها، وأن الكلمةَ تُروّيها، والمودةَ تحييها، والرحمةَ سياجٌ رقيقٌ لإنسانيتها، فكان يؤدي حق ذلك كله دونما توقف أو ملل، وظل تواصله الإنساني مع المرأة متّقدًا مُعْلَنًا نموذجيًا؛ أمًّا، زوجًا، ابنةً، وأختًا، فما كان محمدٌ "الإنسانُ" للمرأة "الإنسان"؛ إلا مُقِّدرًا ومُكْرِمًا.

وتحقق لمحمد الإنسان بمجاهداته، السمو عن نطاقه الفردي، ليشغله همُّ الأمة، وكان حرصه في كل حال موجهاً لامتلاك "المعية الإلهية"، فلم تشغله الدعوة إلى تقليد حضارتي الفرس والروم

العظيمتين وإلى استنساخ أنماطهما، بل كان انشغاله متوجهًا إلى "تجديد عقيدة العرب وتصفية سريرتهم وتسوية خلقهم، حتى إذا استقامت لهم هذه المزايا، دعاهم إلى تحصيل العدة لمضاهاة الفرس والروم " (٦٦)، ما يدلنا على أن بناء التحضر حتمًا لابد أن تكون بدايته في "بناء النفس"، فهي المدخل الأصوب للتميز على المستويين: الفردي والجماعي، حيث التركيز ينصب على "العمل"، لهذا كانت نموذجية التميز في إنسانية محمد تتجلّى في أنه " أولُ مشرّعٍ في التاريخ قديمة ووسيطة وحديثة جاء - من عند الله - بالنظرية وقام بعد ذلك بالتطبيق" (٦٧)، لذلك يؤكد السياق القرآني في عديدٍ من آياته على قضية في غاية الأهمية لإنفاذ دين الله في الناس؛ هي الربط بين الإيمان والعمل، إذ هو السبيل إلى وجود نماذج يقتدي بها الناس في المجتمع المسلم، فإن أثر القدوة يغلب العقل قبل أثر العقيدة، وينفذ إلى النفس قبل الإيمان، ويشغل الوجدان بمحبة القدوة، إذ كانت "محبة الناس لمحمد واطمئنانهم إليه، سابقةٌ في قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والإيمان" (٦٨)، **وفي هذا دلالة: أن الناس في كل زمان، وكل نظام، وكل فكر، وكل عقيدة، تثق في القدوة قبل الفكرة، وتميل بطبعها إلى الإخلاص والمخلصين، وتَنْفُر ممن يدّعي الإخلاص، بينما الخيانة تموج في قلبه وينضح بها وجهه ولسانه.**

شاهدُ الإجماع العلمي:

ما كانت عملية تحليل المعايير للحكم على إنسانية محمد؛ حِكرًا على من آمن بدعوة الإسلام عبر العصور، بل شغلت المسألةُ المفكرين والساسة والقادة والأدباء والمؤرخين والحكماء والعلماء في أرجاء الأرض، ممن قرأ الإسلام وعرف تاريخه، أو اطلع سيرة محمد، أو تأمل أثر الإسلام في أخلاق المسلمين المخلصين، أو استوعب حضارة الإسلام وقدّر إبداعاتها وإنجازات علمائها وتاريخ الفكر ومدارسه في الإسلام، وأيقن أثر الوحي القرآني في الفكر بين المسلمين، لذلك فإن هذا الشاهد له تفردٌ عجيب، ويمدنا بدلالات أكثر عجبًا، إذ يصدر هذا الشاهد **ممن يسودهم التمايز في**:

- النطاق الجغرافي، الحضاري، الزمني، التنشئة، البيئة، الموروث، الثقافة، الميول الفكرية والعلمية، والوجهة الدينية.

ويجمعهم الاتساق في:

- إيجابية الحكم على إنسانية محمد، رغم اختلاف المنظور الذي من خلاله نظر كل واحد منهم لتحليل وفهم وتقدير هذه الإنسانية.

فهل الحكم الذي سينتهي إليه هذا الشاهد؛ ينال درجةً أعلى في صحته من الأحكام التي قدمتها الشواهد الخمسة الأولى؟

ليست هكذا تكون المسألة، إنما الشواهد لا تقدم للحكم مزيدًا من الصحة، وإنما تضيف إلى حيثيات الحكم المزيدَ من التوكيد والنقاء والبيان.

فقد تتبعنا في الشاهد الثالث شهادات من عرف محمدًا ولم يؤمن بنبوته، وكان بعضهم منكرٌ وكارهٌ لدين محمد، رغم ذلك لم يستطع واحدٌ ممن أوردناهم في هذا الشاهد ألا ينطق في إنسانية محمد إلا الحق.

إن إصدار الحكم في إنسانية محمد هي عمليةٌ مستقلةٌ عن "التمايز" الحاصل بين أصحاب الحكم، لأنها عمليةٌ تستلزم صحوةً موضوعيةً وصحوةً ذاتية، بدونهما معًا، لن نجد الصحة التي يطمئن إليها العقل البحثي.

نبدأ هذا الشاهد بنوع من **الإجماع العلمي**، ولا نعني بالإجماع هنا الدلالة على الكثرة، وإنما بالعُصبة الصامدة حين تتوافق على حكمٍ واحد وإن قلَّ عددها، في هذا الإجماع درجةٌ فائقةٌ من الاتساق الدال على التئام صحوة الموضوعية بصحوة الذاتية، في قراءة وفهم واستنتاج المعايير التي وضعت "حجر الأساس الأول" في انسانية محمد، وهو "**التوحيد**"، إذ يرى العالم الياباني "إيزوتسو" الذي أتقن العربية وترجم معاني القرآن إلى اليابانية، أن محمدًا والدين الذي جاء به لا يناقض بحالٍ كل دينٍ جاء من السماء، فالإسلام وفقًا لما

يبينه القرآن هو "حركة لإزالة الانحرافات الدينية بقصد أن يعيد بناء التوحيد الحقيقي في شكله الخالص الأصيل" (٦٩)، أراد هذا الباحث أن يؤكد قيمة الاتساق بين رسالات السماء في إقرار التوحيد خالصًا نقيًا، وفي الاتجاه نفسه يؤمن المؤرخ الفرنسي **جوستاف لوبون**؛ أن الإسلام عن طريق التوحيد جمع بين متمايزين في اتساق عجيب، حيث "تشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سر قوته" (٧٠)، لقد فهم لوبون أن عظمة الإسلام في "التوحيد"، وأن محمدًا بعقيدته في التوحيد الذي أصرّ عليه منذ اللحظة الأولى في نبوته، يجمع بين متمايزين: هما اليسر والقوة.

ويؤكد **مارسيل بوازار**؛ أن التوحيد يضفي على الإسلام أكثر صفاته تأصلًا، هي أنه "دين المطلق" (٧١)، به تستقيم حياة الإنسان "المتغير"، فلا يفقد هذا الإنسان راحته ولا يضل مسعاه في الأرض، إلا في اللحظة التي يغادره فيها يقينه بالتوحيد الذي هو أخص خصائص الدين الحق.

ويرى **هـ. ج. ولز**؛ أن التوحيد هو فضيلةُ الإسلام الكبرى، وكأنه يريد الإشارة إلى تركيز الإسلام على الربط المتين بين الاعتقاد والعمل، إذ يقول إن التوحيد ليس الفضيلة الكبرى الوحيدة في الإسلام، إنما يعادله فضيلة كبرى أخرى هي "تبادل الرفق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية" (٧٢)، لأن التوحيد يؤلف النوايا والأعمال والقيم

والرؤى واللسان والجوارح ويجمعها في رباط وثيق مع الله الواحد، مما يجعل في الإنسان شعورًا دائمًا بأن معه الخالق، يسمع ويرى، ويدفعه لإفشاء الرحمة والسلام بين الناس كلها، وقد فهمت **كارين أرمسترونج**: المعنى نفسه حين تقول " لم يكن التوحيد مجرد تأكيد عيني لما فوق الطبيعة عن وحدانية المقدس، وإنما هو مثل كل تعاليم القرآن دعوةٌ للعمل" (٧٣)، فالتوحيد رغم أنه - في الأساس - عقيدةٌ قلبيةٌ، لكنها موجِهةٌ للسلوك والخلق ومحدّدِة لإنسانية من يؤمن بها مخلصًا، لهذا يعتبر **جاك ريسلر**: أن التوحيد عملٌ عظيمٌ، وأنه "حقق في أقصر أجل أعظم أمل لحياة إنسانية" (٧٤)، ويمضي **بوسورث سميث**: لأبعد من هذا الحد، حيث يؤمن أن جوهر اعتقاد محمد والذي جعله الإنسان النموذج ومنح دينه حيويته التي لا تنضب هو " الاعتقاد الذي يسمو فوق كافة الاعتقادات بأن الله واحد" (٧٥)، لأنه ليس ضروريًا لإقرار الإيمان في النفس وحسب، وإنما يمنح هذا الاعتقاد مع الإيمان "القوة والثقة والسمو فوق زلات التحيز والتورط" (٧٦)، لهذا السبب فإن المؤمن الموحد لله تعالى دون أن تشوب توحيده شائبة: يتحلى بالنزاهة والحيدة ويتلافى شبهات التحيز واندفاعات الهوى، لأنه يتعالى بالإنسان إلى مراتب الإحسان، حيث لا يفعلُ أو يقولُ شيئًا إلا وهو يدرك جيدًا أن الله يسمع ويرى ما يقول وما يفعل.

ينتقل بنا هذا الشاهد عبر جَهد منهجي تحليلي، يؤسس لتصنيف آخر يُضاف إلى ما سبقه من معايير، الملفت أن هذا الجهد يمثل إجماعًا آخر اتسقت فيه تحليلات علماءٍ متمايزين، على معياريةٍ إنسانيةٍ تقرُّ بالكمال العقلي النفسي الاجتماعي والأخلاقي في إنسانية واحدٍ من الناس، وفي صورةٍ لم تتوفر لأحدٍ من قبل.

من أبرز ما تضمنه هذا الاجماع من معايير، ما يلي:

الثبات على المبدأ:

فلم يؤخذ على محمد التقلب المزاجي، أو الانفعال السريع، أو التغير بأغيار الناس وتقلباتهم وتباين أحوالهم، فلم يغبْ عن خاطره لحظةً واحدةً ما عليه من واجب البلاغ، لهذا فإنه "تبني موقفه مرة واحدة وإلى الأبد" (٧٧)، رغم أنه وحتى الساعات الأخيرة في حياته قد واجه صعوباتٍ جمة، لكنه لم يدَع هذا المبدأ ينفلت من عقاله مرة من المرات، وهو "إبلاغ رسالة الله إلى الناس بكل ما يملك من قوة" (٧٨)، ويدل ذلك دلالةً واضحةً أن الدنيا بكافة مغرياتها ما كانت في قلبه، وذاك "أعظم دليل على تجرده من عرض الدنيا" (٧٩)، وليعطي مبدأه روحًا تحييه بين الناس وتجعله مشاهدًا ومؤثّرًا ومقنعًا " كان أول المؤمنين ثم أهل بيته، وكان يشعر بالرضا التام عن هذا التحول إلى الإيمان الخالص" (٨٠)، حيث أسّس المبدأ ثم طبّقه قبل أن يبلّغهُ للناس، في ترجمة حقيقية لقاعدة "ابدأ بنفسك"، **وهكذا هم**

الصادقون، يطمئنُ الناسُ إليهم وهم يرونهم يفعلون، ما يأمرون به الناس.

<u>الإخلاص:</u>

يصف **توماس كارليل** في كتابه "محمد المثل الأعلى" إخلاص محمد، بأنه حرٌ عميقٌ كبير، ويعتبر هذا الإخلاص " أول خواص الرجل العظيم" (٨١)، ولعل الأسباب التي أوصلت فهم الناس لحقيقة الإخلاص في إنسانية محمد إلى هذا الحد، وهذا الوصف، لم تكن مقصورةً على واحدٍ من علماء الغرب، وإنما أدركها عامةُ المنصفين منهم وغير المنصفين، يقرر **نيكلسون** " أنا أشعر ومقتنع تمامًا - وجداني وعقلي - بأن محمدًا لم يكن محتالًا ولا مفسدًا ولا عصابيًا ولا مصلحًا اجتماعيًا"، إلى أن يصل بهذا الشعور وذاك الاقتناع إلى أن محمدًا كان منذ اللحظة الأولى وفي جميع الأحوال "مؤمنًا مخلصا نزل عليه الوحي، شأنه شأن كل الأنبياء"(٨٢) إنه يرى "النبوة" تتحقق بثلاثة أشراط مجتمعة، **<u>وقد نالها محمدٌ ﷺ في</u>**:

- الإيمان الذي لا ينقطع أو يفتر برسالته
- والإخلاص
- والتأييد بوحي السماء

المسئولية:

لقد استطاع محمد أن يحول المسئولية من فكرة وقيمة وغاية إلى "**ممارسة**"، حتى صار لها معيارية في الحكم على الأفعال والمواقف والناس، فانتقاها الباحثون معياراً للحكم على إنسانية أعظم البشر، يعتبر **مايكل هارت** أن مسئولية محمد لم تكن عن نفسه وأهل بيته وعشيرته أو دولته، وإنما عن دينٍ وإنسانية، الدين الذي ختم به الله تعالى رسالة الأنبياء، والإنسانية في الناس كافة، حيث " إن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده" [٨٣]، فكان المسئول الأول والأوحد عن دين الإسلام، وعن أصول المعاملة بين الناس، لذا كان محمد يطلب من المسلمين " أن يظلوا على وعي دائم بوجود الله وخشية الحساب بعد الموت" [٨٤]، فإن كثيرًا من موبقات هذا العصر؛ إنما سببها الأكبر هو غياب الوعي بما سيصير إليه الإنسان بعد الموت، يبدو أن "الثورة المعرفية الهائلة" والتطور المعلوماتي والتكنولوجي الذي يزداد لحظيًا وبسرعة مخيفة، يبدو أن هذا كله قد غيّب - على عكس ما يريد العقلاء - قدرات الإنسان في التأمل والمحاسبة والمراجعة، فغاب معها شعوره بمسئوليته، حتى أن الإفساد صار هو الأكثر رواجًا بين الناس، ربما بالقدر الذي تتطور به المعرفة وتتقدَّم التكنولوجيا، بل أصبح هناك ما يمكن تسميته بظاهرة "**استحسان الفساد**" والتباهي بفعله وتبريره، وتغيّر مفهوم

"الإتقان" في العمل إلى مسارات أخرى غير ما يجب أن يكون عليه، نتيجة لذلك غاب عن الإنسان؛ وعيه بإنسانيته وانشغاله بمصيره، لهذا تُبصِّرُنا شرائعُ السماء كلها " أن مصير الإنسان النهائي متوقفٌ على الإنسان نفسه" (٨٥)، فليس هناك ما يحدد للإنسان مصيره إلا نواياه وفعله وسعيه وأثره في الناس، وليس في هذا مخالفة لإرادة الله، بل فيه دلالة على "تطابق الإرادة الإنسانية مع إرادة الخالق" (٨٦)، فمسئولية كل إنسان هي نتاج طبيعي لإراداته.

التوسط الخلقي:

قليلٌ من البشر؛ من يستطيعون الجمع بيسر بين المتمايزين حد التناقض؛ في الرؤى والأفعال والصفات والأخلاق، حتى يوجدوا بينهما انسجامًا يحقق أعلى درجات الاتساق، من ذلك ما يحدث من تصارع المثالية والواقعية في السياسة والفلسفة والأدب وسائر مجالات الفكر، ولم يكن هناك في سيرة محمد كلها وجودٌ لمثل هذه التصارعات، إذ كان طموحه أن يوجد نموذجًا إنسانيًا في الإيمان والعمل، له تفردٌ وتميزٌ، ما دفع بعضُ قصيري النظر أن يعتقدوا أن محمدًا يميل إلى المثالية، والحقيقة أن محمدًا لم يجنح إلى المثالية تمامًا حتى يستغرقه الخيال وينفصل عن واقعه في وجود افتراضي لا علاقة له بحياة الناس وأحوالهم، ولم يجنح إلى الواقعية تمامًا حتى تستغرقه تفاصيل الأحداث فيفقد القدرة على الرؤية والضبط

والتقييم، فإن دينه قد "ارتفع شأنه على النحو الذي بلغه، ولو كان خيالًا لمحمد وصحابته وأتباعه لما تحقق له ما تحقق حتى الآن" (٨٧)، وكان همه منصبًّا نحو "تجديد الثقافة الزائفة والباطل والغرور" (٨٨)، التي سادت جزيرة العرب والعالم، وتحقق له في مدى قصير إنجازٌ كبير: هو التوسط بين المثالية والواقعية، أو لنقل الجمع بينهما في امتزاجٍ فريد، نجح فيه محمدٌ في اقتلاع الزيف والباطل والغرور، وتوكيد الإيمان والإخلاص والخيرية في نفوس من آمنوا برسالته، فكان سببًا في امتداد دينه زمنًا بعد زمن، ولم يتراجع، بل يمتد يومًا بعد يوم.

صنع محمد في "**التوسط الخلقي**" الذي اتخذه مسارًا لدعوته، جملة من الأسس، هي "معايير" تزن قدر إنسانيته، وهي أكثر من أن نحصيها، ظلت موضع اهتمام الباحثين واستحوذت على اهتمامات المستشرقين ممن أنصفوا، في هذه المعايير: المدخل الآمن الذي ارتضاه محمد لنفسه مَعْبَرًا مضيئًا لإنفاذ رسالته وهو مدخل "الصدق"، الذي استعصم به حتى وثق كل من تعامل معه أو اتبع دعوته من صدقه، لهذا نجد **توماس كارليل** يطرح مستنكراً؛ **ليدلل على صدق محمد:**

- هل رأيتم قط أن رجلًا كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا وينشره (٨٩) ؟!

في هذه المعايير؛ ما يرويه "**ليمان**" ما أجمع عليه مؤرخو السيرة في نشأة النبي وتربيته وميله للخلوة والتأمل وتدبر أحوال الناس والكون، فيقرر أن آيات القرآن التي بلَّغها محمدٌ "تنتقد التكبر والأنانية" (٩٠)، في إشارة إلى ما اتصف به خلق محمد من تواضعٍ لم تغيره الطاعةُ والامتثالُ اللذين وجدهما بين جموع من آمن به.

في هذه المعايير؛ ما يقرره المستشرق **هـ. ج. ولز**، أن تعاليم محمد أسست في العالم تقاليد عظيمة للمعاملة الكريمة بين الناس، حيث إنها "تنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، وقد أنشأت مجتمعًا أكثر تحررًا من أي مجتمع آخر سبقه" (٩١)، فما كان لهذا المجتمع أن يبلغ تلك المرتبة من التحرر الإنساني لولا ما كان عليه محمد من حماس وإيجابية، حتى أنه "ما عرف الكسل يومًا من طفولته إلى أن لاقى ربه" (٩٢)، وعُرف عنه نقاؤه إلى الدرجة التي كان فيها الباطن عنده أهم من الظاهر والخفي أفضل من المرئي، ويعلل "**إميل درمنجهم**" هذا المعيار بمسببات أخرى أدت إليه، هي أن محمدًا " كان ذا قلبٍ خالٍ من الكذب والغش والغرور ولم يترك العروة الوثقى بعد أن استمسك بها" (٩٣)، وظل هذا النقاء الذي أوتيه قلبُ محمد سببًا في أن لا ينفصل عن حياة الناس وأفراحهم وأتراحهم، بل جعله هذا واحدًا منهم، يفرحه ما يفرحهم ويؤلمه ما يؤلمهم، وكان "يقدّر الفجيعة، ويستشعر وحشة اليتم" (٩٤)،

لأن اليتم الذي عاشه منذ مولده، أمده بإحساسٍ مرهفٍ بآلام الناس وأوجاعهم، وغالباً **فإن الوجع يصهر صاحبه وينقّيه ويكشف له ما لا ينكشف لغيره**، بل يهبه عقلًا متوقدًّا بالذكاء منشغلًا بالمعرفة، وهذا مما جعل سعيه لامتلاك المعرفة لا يفارقه، فقد تيقن أن إيمانه يشتد وينمو ويزيد بنمو معرفته، فهي ما تنير من أمامه "درب الإيمان" [٩٥]، لهذا تمحورت جميع أفكاره وأفعاله صوب وجهة واحدة هي: "الإصلاح الديني" [٩٦]، ورغم ما انزلق إليه بعض المستشرقين من خطأ اعتبار النبي محمد نموذجًا من نماذج الإصلاح الديني، كالتي عرفتها أوروبا، رغم ذلك، لم تكن عنايته بالإصلاح إلا لأن فكرةً قد استحوذت على همته، هي أن يتم هذا الإصلاح من أجل "إنهاء هذا الوجود المؤلم للغاية المليء بالحيرة، الذي كان فيه العرب" [٩٧]، فقد تيقن أن الإنسان بقدر ما يبتعد عن إيمانه السوي بالله، بقدر ما يُسْلِم عقله لسيطرة الخرافة، **فلا تنمو الخرافات أو تتخلّق، إلا برعايةٍ من عقولٍ فقدت يقينها بالله**.

إن ما يثير الانتباه لدى كثير من مستشرقي الغرب، أن هذه الصفات "المعايير" لم ينقطع أثرها بين الناس إلى اليوم، من آمن بدعوة محمد ومن لم يؤمن، ربما لذلك يقول **رودينسون**:

- كانت حياة محمد قد انتهت في الوقت الذي كانت عظمته تبدأ. [٩٨]

ورغم تحفظنا على محدودية التصور والتعبير في تلك العبارة، **لأن عظمة محمد ما فارقته منذ مولده**، لكن رب أن ما قصد صاحب العبارة من عبارته إلا "**الأثر**"، وكثيرٌ ممن يفاضل في الإنسانية بين الناس، يقيم المفاضلة وفق هذا المعيار، لهذا يقول **ديور انت**:

- إذا ما حكمنا بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ. (٩٩)

هذا مما اتفق عليه باحثون كُثر من الغرب، لأن عظمة محمد بلغت درجة الكمال الإنساني في كل صفة "منفردة" من صفاتها، ويتضاعف الإعجاز والتفرد في هذا الكمال، ودلالته على الاتساق المدهش، ولعله التوسط بين صفات هي "معايير" في حكم المتقابلات المتمايزات، كالرضا والغضب، والرحمة والشدة، والقدوة والعفو، والخلوة والمشاركة، وغيرها من أوجه التمايز، لذلك **يقول الصوفي الهندي راما كريشنا**:

- إن من الصعوبة بمكان أن تلم بالحقائق المكونة لشخصية محمد، ما نقدر عليه أن نمسك ببعض لمحاتها، يا له من تعاقب للسمات المكونة لتلك الشخصية، إذ نجد محمد الرسول، محمد المحارب، محمد الإداري، محمد رجل الدولة، محمد المفوه، محمد المُصلح، محمد ملجأ اليتامى، محمد حامي العبيد، محمد محرر المرأة، محمد القاضي، محمد العابد. (١٠٠)، فحيثما تكون هذه

الصفات مجتمعة متسقة متناغمة متجسدة في إنسان واحد، حتماً ولابد أن يكون "محمدٌ" هو المقصود، لا أحد سواه.

• • • •

بنظرة فاحصة؛ نجد أن هذه الشواهد، التي هي على سبيل المثال لا الحصر، تم انتقاؤها من جملة الدراسات التي تصدَّت لبحث سيرة النبي، وكان الانتقاء بقدر ما توفر للبحث من مصادر ومراجع، عربية وأجنبية.

إذ نلاحظ أن هذه الشواهد **يسودها التمايز من حيث**:

- أصحابها، أزمانهم، بيئاتهم، ثقافاتهم، دياناتهم، وتوجهاتهم الفكرية.

ويسودها الاتساق في:

- منهجها، غايتها، وإيجابية حكمها في تقدير إنسانية محمد.

كما نلاحظ ونفهم أن هذه الشواهد تصنف الصفات "المعايير" المعبرة عن إنسانية محمد ﷺ: خُلقيًا، نفسيًا، عقليًا، واجتماعيًا، بحيث يصعب أن نجد معيارًا واحدًا منها لا يستوعب هذه الأبعاد الأربعة مجتمعة في نسقٍ إنساني واحد، له تميزه عن كل أفراد الإنسان.

• • • •

عند هذه النقطة من الدراسة، ووفقاً لمقتضيات البحث العلمي، يتبادر إلى الذهن، <u>**السؤال المنطقي التالي:**</u>

- **كيف ومع هذه الدرجة من الاتساق في الحكم بأفضلية محمد دون سواه من الناس؛ نجد حُكمًا آخر مخالفًا له، بل ومناقضاً كل التناقض، لدى طائفةٍ من الباحثين، على مستوى عموم الحكم، أو على مستوى جزئياته؟**

- فما الذي يمكن أن يوصل البحث والباحثين إلى مثل هذا التناقض في الحكم؟
- وهل يعود هذا التناقص إلى "موضوع الحكم" وهو سيرة النبي في مادتها ومصادرها العلمية والتاريخية ودقتها وإسنادها وصحتها ومنهجيتها، أم يعود إلى "الباحثين" أصحاب هذه الأحكام من العلماء والمفكرين الذين تصَّدوا لفحص وتدقيق وفهم موضوع الحكم وهو "إنسانية محمد"؟

إجابة هذه الأسئلة؛ هي ما سيتعهد به القسم الثاني من دراستنا.

هوامش القسم الأول:

(1) عبد الحليم محمود: القرآن والنبي، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 2002، ص 195:196

(2) مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض،

ط 1998، كتاب الصلاة، باب جامع صلاة الليل، حديث رقم 746، ص 293

(3) Willim Muir: Life of Mahomet, Smith, Elder and Co., 65. Cornhill, London, 1861, Volum 1, P. ii.

ومحمد حسين هيكل: حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، ط 14، ص 37

ووحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ترجمة: ظفر الدين خان، مكتبة الرسالة، ص 161

(4) نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص «دراسة في علوم القرآن»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2014، ص 9

(5) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد عناني، شركة سطور، القاهرة، ط 2، 1998، ص 132

(6) Reynold A. Nicholson: A Literary history of the Arabs, London, T. Fisher Unwin, Adelphi Terrace, 1907, P 141

(7) Emile Dermengham: The Life of Mahomet, George Routledge & Sons, LTD, London, 1930, P. 246

(8) الألوسي: روح المعاني، تحيق: إدارة المطابع الأميرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، حـ 29، ص 150

(9) محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1995، المجلد الثالث، حديث رقم 1496، ص 483

(10) أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 2008، ص 130

(11) إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ط 1983، ص 25

وأندريه لالاند: الموسوعة الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط 2، 2001، ص 570

(12) شوقي ضيف وآخرون: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 4، 2000، باب الألف، ص 30

(13) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط 1، 2004، جـ 2، ص 158

(14) الكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: عادل شفيق، الدار القومية للطباعة والنشر، ص 13

(15) توشيهيكو إيزوتسو: الله والإنسان في القرآن، ترجمة: هلال محمد الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2007، ص 128

(16) ابن إسحاق: السيرة النبوية، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2004، جـ 1، ص 102

(17) ابن سعد: الطبقات الكبير: تحقيق: علي محمد عمر: مكتبة الخانجي: القاهرة، ط 1، 2001، جـ 1، ص 95

(18) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ 1، ص 200:201

(19) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ 1، ص 109

(20) ابن إسحاق: كتاب السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1978، ص 132

(21) البخاري: الجامع الصحيح، المجلد الثالث، حديث رقم 4953، ص 327

وابن عبد البر: الدرر في اختصاص المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 1991، ص 32

(22) محب الدين الطبري: خلاصة سيد البشر، تحقيق: محمد عبد الغفار خان، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، ط 2005، ص 106:107

(23) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم 77 / 2327، ص 950

والأصبهاني: أخلاق النبي، تحقيق: صالح بن محمد الونيان، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 1، 1998، ص 34

(24) محب الدين الطبري: خلاصة سيد البشر، ص 64:65

(25) الترمذي: الشمائل المحمدية، تحقيقك محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 2006، حديث رقم 348، ص 157:158

(26) البخاري: الجامع الصحيح، جـ ا، كتاب «بدء الوحي» حديث رقم 3، ص 14

(27) أبو الفضيل عياض: الشفا، تحقيق: عبده علي كوشك، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2013، ص 203

(28) ابن سيد الناس: عيون الأثر، تحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحي الدين متو، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، جـ 2، ص 427

(29) الزهري: كتاب المغازي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨١، ص ٥١

(30) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ 2، ص 272

(31) موسى بن عقبة: المغازي، تحقيق: محمد باقشيش أبو مالك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهير، أغادير، المملكة المغربية، ط 1994، ص 128

(32) البخاري: الجامع الصحيح، المجلد الأول، باب «ما جاء في العلم»، حديث رقم 63، ص 39

(33) موسى بن عقبة: المغازي، ص ٧١

(34) محمد بن محمد العواجي: مرويات الإمام الزهري، عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، وزارة التعليم العالي، السعودية، رقم الإصدار 64، ط 1، 2004، جـ 2، ص 820

(35) ابن سيد الناس: عيون الأثر، جـ 2، ص 228

(36) محب الدين الطبري: خلاصة سيد البشر، ص 75

(37) ابن سعد: الطبقات الكبير، جـ 15، ص 39

(38) البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 1، 1988، ص 330

(39) موسى بن عقبة: المغازي، ص 83

(40) محمد بن محمد العواجي: مرويات الإمام الزهي، ص 717:718

(41) البخاري: الجامع الصحيح، المجلد الأول، كتاب الوحي، حديث رقم 6، ص 16

(42) ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق: محمد زهري النجار، المؤسسة السعيدية، الرياض، جـ 1، ص 412

(43) جلال الدين السيوطي: الخصائص النبوية الكبرى، تحقيق: عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط 2، 1410 هـ، جـ 1، ص 280

(44) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ 1، ص 320

(45) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ 1، ص 313:314

(46) موسى بن عقبة: المغازي، ص 141

(47) أبو الفضل عياض: الشفا، ص 104

(48) نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط 2، 1959، ص 190:191

(49) جارودي: وعود الإسلام، ترجمة: ذوقان قرقوط، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 1985، ص 25

(50) بودلي: الرسول؛ حياة محمد، ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جورة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، ص 100

(51) Yusef Islam: The Life of the Last Prophetm Darussalam Publishers & Distributors, Riyadh, Saudi Arabi, P. 23

(52) أحمد ديدات: محمد الخليفة الطبيعي للمسيح، ترجمة: رمضان الصفتاوي، دار النهضة للطباعة الإسلامية، القاهرة، 1991، ص 65

(53) محمد إقبال: تجديد الفكر الديني، ترجمة: محمد يوسف عدس، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 2011، ص 15

(54) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ترجمة: ظفر الدين خان، مكتبة الرسالة، ص 160

(55) Ameer Ali Syed: The Spirit of Islam, Christophers, London, P. 112

(56) حسين مؤنس: تاريخ موجز للفكر العربي، دار الرشاد، القاهرة، ط 1، 1996، ص 13

(57) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين، دار الفكر العربي، ط 2012، ص 177

وعبد الرحمن الشرقاوي: محمد رسول الحرية، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1990، ص 356

(58) محمد رأفت سعيد: الرسول المعلم، دار الوفاة، المنصورة (مصر)، ط 1، 2002، ص 40

(59) على الطنطاوي: سيد رجال التاريخ، دار المنارة للنشر والتوزيع، السعودية، ط 2004، ص 14

(60) مصطفى محمود: محمد، دار المعارف، القاهرة، ط 10، 1977، ص 11

(61) محمد حسين هيكل: حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، ط 14، ص 140

(62) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 140 هـ، ص 159

(63) البخاري: الجامع الصحيح، حديث رقم 4406، ص 174 ومسلم: صحيح مسلم حديث رقم 1679، ص 695

(64) خالد محمد خالد: إنسانيات محمد، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004، ص 46

(65) أكرم ضياء العمري: الرسالة والرسول، ط 1، 1990، ص 99

(66) طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000 م، ص 197

(67) سهيل زكار: من مقدمة تحقيق كتاب المغازي للزهري، دار الفكر، دمشق، ط 1981، ص 17

(68) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص 81

(69) Washington Irving: Lives of Mohamet, Baudry's Avropean Library, Paris, 1850, P. 21

وتوشيهيكو ايزوتسو: الله والإنسان في القرآن، ص 136

(70) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص 132

(71) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، منشورات دار الآداب، بيروت، ط 1، 1980، ص 48

(72) هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2، 1965، جـ 3، ص 104

ودرمنغم: الشخصية المحمدية، ص 109

(73) كارين أرمسترونج: محمد نبي زماننا، ترجم: فاتن الزلباني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 1، 2008، ص 67

(74) جاك ريسلر: تاريخ الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص 37

(75) Bosworth Smith: Mohammed and Mohammedanism, Smith Elder, Co., 15 Waterloo Place, London, 1874, 166

(76) Theodor Noldeke: Sketches from Eastern History, Translated by: John Sutherland Black, Adam and Charles Black, London, 1982, P. 60:61

(77) Emil Dermengham: The Life of Mohamet, George Routledge & Sons, LTD, London, 1930, P. 72

(78) Bosworth Smith: Mohammed and Mohamedanism, P.105:106

(79) بودلي: حياة محمد، ص 81

(80) Lamartine: History of Turkish, D. Appleton & Company, New York, 1885, Vol. 1, P. 69

(81) توماس كارليل: محمد المثل الأعلى، ترجمة: محمد السباعي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1993، ص 12:13

(82) Reynold A. Nicholson: A Literary History of the Arabs, T. Fisher Unwin, Adelphi Terrace, London, 1907, P. 179

(83) مايكل هارت: الخالدون مائة، ترجمة: أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ص 17

(84) Theodor Noldeke: Sketches from Eastern History, P. 64

(85) تولستوي: حكم النبي محمد، ترجمة: سليم قبعين، مصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 3، 1987، ص 9

(86) Lamartine: History of Turkich, P. 69

(87) Bosworth Smith: Mohammed and Mohaedanism, P. 82

(88) Emil Demengham: The Life of Mohamet, P. 72

(89) توماس كارليل: الأبطال، ص 55

(90) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، جـ 13، ص 45

And, Oliver Leaman: An Introduction To Classical Islamic Philosophy, Cambridge University Press, UK, 2004, P.1

(91) هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، جـ 3، ص 103

(92) بودلي: حياة محمد، ص 52

(93) Emil Dermengham, The Life of Mohamet, P. 85

(94) William Mouir: Life of Mohamet, Smith Elder and Co., 65 Cornhill, London, 1861, Vol. 1, P. 27

(95) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 8، 1993، ص 369

(96) Washington Irving: Lives of Mohamed, P. 21

(97) Arther Wallaston: The Sward of Islam, EP. Dutton and Company, New Yourk, 1905, p. 41

(98) Macim Rodinson: Muhammad, Tauris Parke Paper backs, London, 2002, P. 293

(99) ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ 13، ص 47

(100) K. S. Rama Krishna: Muhammad The Prophet of Islam, World Assembly of Muslim Youth (WAMY), Riyadh, Saudi Arabia, 1989, P. 20

القسم الثاني

إنسانية محمد بين الموضوعية والذاتية

- تمهيد
- التلازم بين الموضوعية والذاتية
- مقدمات الكتابة في السيرة النبوية
- منهجية الكتابة
- سيادة الروح النقدية
- مقدمات الخلل في الحكم على إنسانية محمد
- محددات الخلل

تمهيد:

تظل سيرةُ محمد ﷺ موضوعًا للبحث، ويبقى موضوعُها هدفًا للباحثين.

فما خلا عصرٌ، وما خلت أمةٌ من أثر البحث فيه، ومن عمل الباحثين، منذ بعثته للناس كافة؛ رسولًا إنسانًا، وبشرًا يُوحىَ إليه.

وتظل المصادرُ الأولى والأهم للمادة التاريخية والعلمية لموضوع البحث في سيرته؛ متضمنةً في آيات الوحي القرآني، وما فصّلته كتب السنة والسيرة والمغازي والشمائل والتاريخ، ويبقى لتلك المادة وجودُها المستقل في مصادرها، وزمنًا بعد زمن طالها التفصيل والتحليل والتصنيف والإضافة، **وتلك قضايا بحثية أخرى**، لا تتوقف عند حد، ولا تنتهي عند غاية بعينها.

والباحثون في السيرة النبوية يختلفون؛ في مناهجهم ورؤاهم ومناهل مادتهم العلمية وأدواتهم، وأخيرًا يختلفون في أحكامهم، و"**اختلاف الأحكام**" هذا موضع بحث علمي له الأولويةُ القصوى، إذ تبقى سيرةُ محمد هي المدخل الأعظم لفهم الإسلام، وتظل إنسانيةُ محمد مكونًا رئيسًا في فهم سيرته العطرة، وتظل تلك الإنسانية مكونًا رئيسًا في فهم الدين، لأنها تجمع بين عنصرين غاية في الاتساق وفي التمايز، هما:

البشرية والنبوة، لذا تظل دلالةُ صحتها هي الدلالة الكبرى على صحة الإسلام برمته.

وقضية الصحة في كافة موضوعات البحث كقضية البطلان، هي قضيةٌ منهجية بالأساس، وتوكيد الصحة في الحكم العلمي ناتجٌ عن بحث علمي؛ يستلزم توافر مجموعتين من الضوابط، لا يفترقان: الضابط الموضوعي والضابط الذاتي، حيث يتصل الضابط الموضوعي بالمادة العلمية لموضوع البحث من حقائق ومعلومات ومعطيات وأدلة، ويعبر الضابط الذاتي عن رؤى الباحثين في الموضوع ودوافعهم البحثية وميولهم وثقافاتهم، وبالجملة كل الجزيئات المكونة لذات الباحث.

التلازم بين الموضوعية والذاتية:

إن السؤال المنهجي الذي يفرض نفسه: هو:

- **أي موضوعية ... وأي ذاتية؟**

فقد ارتبطت الموضوعية في أوساط العلماء وعامة الناس بالدلالة على الدقة والمنهجية، بالضبط مثلما ارتبطت الذاتية بالدلالة على نقيض ذلك، أي بغياب الدقة والمنهجية، واستقرَّ هذان المفهومان بهكذا تصور في الأفهام، على اعتبار أن الذاتية "نزعة ترمي إلى تحكيم الذات أو تكوين الآراء والانطباعات" (١)، وبالتالي فالذاتية وفق هذا

التحديد الاشتقاقي لا توصل إلى حقائق، وغاية مسعاها أن تكوِّن رأيًا أو انطباعًا، وأن ليس في استطاعتنا أبدًا أن نصدر حكمًا علميًا واحدًا إلا "بالموضوعية"، وبها وحدها، لأن فيها وبشكل حاسم "غياب لكل عوامل التحيز وكفٌ لتأثيرها" (٢)، وانتقلت هذه الدلالة من اللغة إلى الاصطلاح في واقع الناس وفي إجراءات البحث، وتم تداولها عبر العصور والتطبيقات والتخصصات والعقول حتى صار لها قوة الحقيقة، وما عاد أحدٌ من الناس أو العلماء في حيواتهم اليومية والعلمية يسلم بدقّة إجراء أو صحة حكم إلا إذا اتصف بـ "الموضوعية" وفق هذه الدلالة، وإلا إذا كان نقيًا من كل أثر للذاتية، مع أن كافة الإجراءات العلمية وأحكام وقوانين العلم التي أنجزها العلماء عبر العصور هي **نتاجٌ إنساني**، أي لا تنفصل ولا تعدم أبدًا أثر الذاتية في صناعتها وإنجازها.

فكيف لأحد أن يتصور إمكانية الفصل بين الناتج الإنساني في البحث وذاتية الباحث "الإنسان"، بدعوى التزام الموضوعية، وكيف يمكن النظر للذاتية على أنها نقيضٌ للموضوعية، وبالتالي فهي نقيضٌ مضاد للعلم والدقة والمنهجية؟

فإن من يبحث ويمنهج ويحلل ويستنبط ويتحرى ويكتشف ويضيف ويحكم ويقيّم هو "إنسان"، أي "ذاتية" هذا الإنسان "الباحث".

فالموضوعية التي عن طريق ضوابطها يتم الفحص الدقيق للمادة العلمية لموضوع البحث، ما كان لها أن تتشكل وتوجد إلا عبر **"ذاتية إنسانية"**.

فهل من الإنصاف – **في مجال البحث العلمي**- أن يظل الارتباطُ في الدلالة قائمًا بين الذاتية والبعد عن الدقة والانفصال عن المنهجية؟

إن "الذاتية" مكونٌ بشري في الإنسان الباحث، وهو محور العمليات العقلية والنفسية التي بمقتضاها يبني الباحث أحكامه، **وفي استطاعة هذا المكون البشري المهم أن:**

- يتعالى على فرديته الضيقة، أو يسقط فيها
- يُخلص في إجراءاته العلمية، أو ينتقص منها
- يتأنى في فهمه ويدقق، أو يتسرع
- يستعصم بالحيادية، أو تُسيّره قناعاته الخاصة وأحكامه المسبقة
- يستقيم في نتائجه ويستوي، أو يتطرف

فالذاتية ليست شرًا كلها، كما أنها ليست خيرًا كلها.

وصحة الأحكام البحثية من إعمال الذاتية، بالضبط مثلما هو بطلانها.

لأن كل التحديات في البحث، وفي الفكر عمومًا، تتجمع حول عنصرين اثنين: الموضوع والذات.

حيث صار ما يرتبط مباشرة بالموضوع، هو ما نطلق عليه "الموضوعية"، وصار ما يرتبط مباشرة بالباحث، هو ما نطلق عليه "الذاتية".

فالموضوعية والذاتية من جهة ما بينهما من فروق وتمايز، وما بينهما من علاقات واتساق؛ **كمثل واحدٍ من الأطباء الجرَّاحين؛** أراد أن يجري لأحد مرضاه عمليةً جراحية، فيها شفاؤه وبقاء حياته وسلامته، تتمثل الضوابط الموضوعية عند إجراء العملية الجراحية في جودة الأجهزة الطبية ونوع التخدير وجرعته ونقاوته ودقة مراقبته وغرفة العمليات وتجهيزاتها والأدوات الطبية وأجهزة المتابعة وأدوات الجراحة والمواد الطبية الأولية والثانوية وكافة العناصر المادية التي تمكّن الجرّاح من تنفيذ العملية من لحظة ابتدائها إلى تمامها، وتتركز الضوابط الذاتية في الطبيب الجراح الذي سيتولى الجراحة ويكون مسئولًا عن كل عناصر تنفيذ العملية بما فيها الضوابط الموضوعية، فهو الذي سيحدد للإجراء الجراحي زمنه، مكانه، أدواته، التخدير، التمريض، وهو الذي يجهز المريض عضويًا ونفسيًا، وينسّق ويرتّب ويدير ويشرف ويراقب ويلاحظ ويتابع ويسجّل، ولا يتوقف، ولا تكتمل مسئوليته إلا مع انتهاء كافة الإجراءات.

ونجاحُ أو فشل هذه العملية الجراحية؛ يعود إلى درجة التكامل والتناغم والانسجام بين هاتين المجموعتين من الضوابط، هناك

فارقٌ وتمايز نوعيٌ كبير بينهما، لكن نجاحَ العمل وتحقيق الغاية وإنفاذ النتيجة الصحيحة المرجوة؛ لا يتحقق إلا بقدر التوافق بينهما. وكذلك البحث العلمي في الإنسانيات، والطبيعيات، لا يتحقق إلا بتضافر ضوابطه الموضوعية والذاتية معًا، وتكون النتائج ومن ثم الأحكام صحيحة أو باطلة حسب دقة وكفاية الضوابط الموضوعية ودرجة الاستواء في ذاتية الباحث، أي بقدر النزاهة والحيادية والإخلاص في إجراءاته البحثية.

هذا الأمر في العلم وفي حياتنا الإنسانية، يوجب التمييز بين "ذاتية" و "ذاتية" أخرى مغايرة لها تمامًا، ومناقضة، **إذ هناك:**

- **الذاتية المتطرفة:**

التي ينتفي في أحكامها؛ كلها أو بعضها، أثرُ الإنصاف، لذلك فإن أحكامها في الغالب الأعم، هي مضادة لمقتضيات العلم، بل وهادمة لها.

- **والذاتية السوية:**

والتي عمادُها الإنصاف في الحكم، والتخلي عن التحيز المجحف، وهي ما يُعوّل عليها في العلم والعمل البحثي في شتى مجالاته، إقرارًا للنزاهة والحيادية، وترسيخًا لقيمة الصحة في الحكم.

فالذاتية السوية ركنٌ ركينٌ في البحث وفي الحكم، كونها تتنزه عن الأهواء والميول، وتتعالى عن عصبيات الدين والعرق واللون واللغة، ولا تكون خالصةً في سعيها البحثي إلا للعلم وحده.

فمن مقتضيات المنهج في البحث العلمي:

- التحقق من مصادر المادة العلمية
- التنقيب عن الحقائق الدالة على الموضوع
- الفصل الحاسم بين الحقائق، الآراء، والانطباعات
- فحص المعلومات والأدلة وتوثيقها
- حضانة المعلومات بضوابطها
- تحليل المعلومات، والربط بين عناصرها بوعي
- استنتاج ما بينها من علاقات، مقارنات، ومقاربات
- والبناء عليها، وإصدار الأحكام

إن أثر الذاتية لا يغيب أبدًا عن هذه المقتضيات "العمليات البحثية"، رغم أنها جميعًا متصلةٌ بموضوع البحث، لكن وراء كل عملية منها وضابطها الأول هو "إنسانيٌ" بالدرجة الأولى، و"ذاتيٌ" أيضًا بالدرجة الأولى، لذلك فلا أحد يمكنه الجزم أن "الذاتية" تقف دائمًا في تضاد أو تناقض مع "الموضوعية"، إنما يتكاملان، فالذاتية السوية في البحث العلمي "ليست ضرورة تقنية فحسب، ولكنها أيضًا ضرورة إيمانية" (٣)، ورغم أن ضبط الأحكام وتقرير النتائج النهائية في البحث

وفق الضوابط الموضوعية والذاتية، هو أمرٌ صعبٌ وشاق، لكننا نستطيعه، لتحقيق أعلى رتبة من انضباط الروح العلمية في البحث، حيث يكون "طلب الحقيقة بدون تأثر برأي أو عاطفة سابقة" (٤)، مما يعني أن الذاتية لا تنتفي مطلقًا عن المعايير الموضوعية، بالضبط مثلما لا تنفصل أبدًا أو تمامًا عن المعايير الذاتية، إذ هناك من يرى "أن فكرة الموضوعية الكاملة في الانفصال الكامل للذات المدركة عن الموضوع المُدْرَك مجرد أوهام" (٥)، وفي رأي آخر يدعمه ويؤيده، يقول البعض "إن الزعم بموضوعية مطلقة حتى في العلوم الطبيعية قد أصبح وهمًا لاغيًا" (٦)، لهذا يصبح اعتبار الموضوعية هي الصحة والصحة لا غيرها، لا قبلها ولا بعدها، يصبح من قِبل الكلام الذي يفقد دقته ويخرج عن أطر البحث العلمي ومعقوليته، لأن للموضوعية مساحةٌ ممتدة كما للذاتية مساحةٌ ممتدة، وفي كل منهما **تتراوح أحكام العلماء ما بين درجتي**: الصحة التامة والبطلان التام.

<u>لهذا فغيرُ علمي</u> أن تُذكر الموضوعية في أي بحث علمي وكأنها وحدها هي الصحة، وغير علمي أن تُذكر الذاتية في أي بحث علمي وكأنها وحدها هي البطلان.

<u>فالذاتية</u>؛ في إجراءاتنا البحثية وفي أحكامنا، هي المنطلق الذي يمهد للموضوعية ويقدّم لها، ولأن موضوع دراستنا "إنسانيٌ" متعلق

بعظيمٍ أجمع العقلاء على عظمته، حيث فيه تحققت الكمالات تامة غير منقوصة -كما تبين في المبحث الأول من الدراسة - بدءًا من الكمال البشري إلى كمالات النبوة، فإن هذه الرتبة العُليا من الكمالات، هي أول ما تلفت الباحث، حيث تلفت "ذاتيته"، تشدّه، تشغله، تُشبع - بحقائقها وأدلتها وكفايتها وصدقها - عقله البحثي، فتدفعه إلى إعمال المعايير الموضوعية، ولكن من خلال ذاتية سوية متجردة، فلا يدرك وهو يحكم بموضوعية إلا وهو في أتم حالات الذاتية من الحيدة والوضوح والنقاء، ولا يشعر وهو في غاية ذاتيته إلا وهو يقبض على ضوابط الموضوعية بأدق وأرتب ما تكون.

فالبحث في "إنسانية محمد": عماده موضوعيةٌ علمية، لا تعدم في كافة لحظاتها أسسَ التقدير والتقديس والتبجيل كأوفى ما تكون، كما لا تفتقد ذاتيتها السوية التي تلتزم أقصى درجات التحليل والبرهنة.

وهذه غاية عُليا في البحث وبناء الأحكام في العلم.

إذ كيف وبأي المعايير؛ يستدلُ على كمالات البشرية وكمالات النبوة من لا يقر بوجودهما أصلًا؟

وكيف وبأي المعايير؛ يضمن صحة حكمه في أفضلية إنسانية محمد، من تكبَّلَ عقله البحثي بموروث من تصورات باطلة وأحكام مسبقة، استطاعت أن تقهر قدراته في الفهم والتحليل؟

وكيف وبأي المعايير، يملك الحيدة والإنصاف، من تحجَّر وجدانه في أغلال ثقافية، تؤسس لكراهية إنسان نبيٍ، تمثلت في إنسانيته أرقى رتب الكمال الإنساني؟

وبأي الضوابط؛ يُقَيّم الباحثُ إنسانيةَ محمد، حين تروي لنا أم المؤمنين عائشة:

- كنت أشرب وانا حائض، فأناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ، فيشربه (٧) ؟

إن تشريعات حقوق المرأة التي فاقت الحصر، والقابعة في مجلداتها في أكوام المحاضر والجلسات والدراسات والتنظيرات والاستبانات، التي تطالعنا صباح مساء في إكرام المرأة، لتتضاءل أمام فعلٍ واحد كهذا الفعل، فيه كمالُ الرجولة، كمال المحبة، كمال التكريم، وكمال الإنسانية.

وبأي معيارية، وبأي ضوابطها من التجرد، يمكن أن يسبرَ البحثُ العلمي حقائقَ إنسانية محمد حين أمَّن قومه بعد أن آذوه وسبوه وحاصروه وأخرجوه من أحب البلاد إلى قلبه، حتى إذا عاد إليها منتصرًا قادرًا على القصاص، فإذا به - نصره لدينه لا لنفسه - يبسطها لهم بكمال حلمه وكمال رحمته:

- اذهبوا فأنتم الطلقاء؟

وبأي درجة من الدقة في الضبط الموضوعي والذاتي؛ نستطيع تقدير كمالات الإنسانية في نبي الله محمد، وهو يُصرّ على المضي في رسالته وليس معه إلا نفرٌ قليل ممن آمن، وقريش تملأ الدنيا بجبروتها وسطوتها وسادتها وإغراءاتها بالمال والسلطة، فيقولها حاسمة لعمّه الذي يمنعه من قريش ويخالفه وهو يحبَّه ويجلّه:

- والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه؟

كلمات معدودات فيها الدلالة على وضوح الرؤية، والإيمان بالهدف، والوسيلة، والرسالة، وإرادة الفعل، وأدب الخطاب.

إن الموضوعية والذاتية جناحان لبدن واحد، إما أن يصحَّ أو يعتلّ، فلا تكون الصحةُ ولا يكون الاعتلال إلا بهما معًا، بالتساوي والتوازي، والتلازم في الاتساق والتمايز، فلماذا إصرارُ الخطاب بين العلماء على الربط التعسفي بين الموضوعية والصحة، وبين الذاتية والبطلان؟!

لقد أصبح هذا الربطُ مشكلةً معوقة للبحث وللباحثين، لأن الفصل بين الموضوعية والذاتية غيرُ ممكن، لا على المستوى النظري ولا على المستوى التطبيقي، لأن "المستويان متداخلان تداخل العلاقات التي تنسج كلا منهما"(٨)، والتداخل لا يعني ذوبان أحدهما في الآخر، فلكلٍ من الموضوعية والذاتية وجودٌ مستقل، يمكن حصرهما في **مفهومين متمايزين متكاملين**:

- **المفهوم الأول:** النزاهة؛ في تجرد الباحث عن الأهواء والميول والرغبات واستبعاد المصالح الذاتية.
- **والمفهوم الثاني:** الموضوعية؛ في الحرص على معرفة الوقائع كما هي في الواقع ... لأن العلم قوامه وصف الأشياء وتقرير حالتها. [٩]، فالحكم العلمي بهذا الحصر، هو مركبٌ من "**تجرد**" و "**معرفة**".

مقدمات الكتابة في السيرة النبوية:

لم ينشغل المسلمون بكتابة السيرة حين كان الرسول عليه السلام حيًا بينهم، إذ كانت أمورها ودقائقها ماثلةً في قلوبهم، فاعلةً في حياتهم، يتعايشون معها، يتناقلونها، حتى صارت دماً يجري في عروقهم، وتنتقش آثارها في ذاكرتهم، فلما تُوفي محمد؛ توجه الاهتمام إلى تسجيلها، حتى ما لبث أن تحول إلى منهجية للتدوين، فصارت علمًا، وتفصيل هذا التحول مُدققٌ في مواضعه بين كُتّاب السيرة.

ظلت حياة محمد ﷺ، وجوامع كلمه، حركاته وسكناته، صفاته، وأفعاله، هي الشغل الشاغل بين من اتبعوه، بل وعند من لم يؤمنوا بدعوته، حتى غدت هذه التفاصيل نسيجًا رئيسًا في أيام العرب، وانشغلت بها الأمم الأخرى بعد الفتوحات الإسلامية، وامتد البحث

إلى ما كان قبل مبعثه، والتأريخ لحياته منذ مولده، ونسبه لأمه وأبيه، قبيلته، مكة، عرب الجزيرة، وتسلسل الرسل والأنبياء، إلى أن أسست هذه الموضوعات علمًا للسيرة بين المسلمين، وقبل أن ينقضي القرن الأول من الهجرة؛ نهض رجالٌ أخذوا عن بعض الصحابة والتابعين، غايتهم حفظ السيرة الشريفة، أبرزهم عروة بن الزبير، وكان لهم منهجٌ، أداء، ورسالة، ثم ما قام به الزهري الذي " أعطى السيرة النبوية هيكلًا محددًا، ورسم خطوطها بجلاء ووضوح" (١٠)، فاجتمعت لهما معاً؛ دقةُ التسجيل وكفايةُ الحقائق، وانتقلت الكتابة في السيرة من طبقة لأخرى ظهر فيها ابن إسحاق الذي " اتفق الباحثون على أن ما كتبه يعد من أوثق ما كتب في السيرة" (١١)، فانضبطت به أشراط الموضوعية في التسجيل ومنهجية الترتيب مع أمانة النقل للتفاصيل في المتون والأسانيد، فضلًا عما كان لديه من الإخلاص ونزاهة الرصد لأحداث السيرة، لأنه "أثبت تقريبًا جميع المادة الإخبارية التي كان المسلمون جمعوها عن النبي محمد ﷺ خلال القرن الهجري الأول" (١٢)، فحازت منهجيته في التدوين حكمًا منصفًا بدقتها وصحتها وأمانتها عند الأعم الأغلب من الباحثين عبر العصور، بل وعند من يناصب الإسلام ونبي الإسلام العداء، يذكر **القس جورج بوش** في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي:

- تم اطلاع العالم على جميع الحقائق التي يمكن الوصول إليها عن حياة النبي العربي ومناقبه.

لكنه يرى أن النظريات والتنظيرات التي تستند إلى هذه الحقائق قلما تأتي بجديد أو تصنيف، ما أدى به إلى أن يدعو لاختيار وتنظيم واستثمار لبعض التفاصيل البارزة في تاريخ محمد على النحو الذي ينقلها للقارئ الغربي بشكل صحيح ومركز. (١٣)

ورغم غموض دعوته وقصده منها، لكنه وهو يقرّ بأن ما اطلعنا عليه من حياة محمد وما عُرف به، إنما هي حقائق؛ فإنه يوجه اتهامًا ضمنيًا للمسلمين بالتقصير في الإضافة لهذا الرصيد، في قراءتها ثم الاختيار والتنظيم والاستثمار فيها، لإعادة تشكيل وعي الغرب بها.

إن سيرة النبي محمد وهي تنتقل من المعايشة إلى الحفظ الشفهي والنقل والإخبار، ثم إلى التدوين في مصادرها الأولى؛ كان لها توازنٌ منهجيٌ وتحليلٌ نقديٌ على غير مثال سابق في التأريخ لأشخاص الرسل والأنبياء والمفكرين والحكماء عبر التاريخ، ولكن المسألة لم تخلُ - لدى البعض - من المزيد من الإضافات والتفاصيل، أحيانًا درجة المبالغة، وربما درجة التلفيق، عن طيب نية أو سوء قصد أو ضعف تبصر بالنتائج، خاصة لدى بعض المتأخرين ممن تصدّوا للكتابة في السيرة، حيث حاد بعضهم عن الدقة في النقل والأمانة في التدوين، مما أدى إلى أن تجنح كتاباتهم عن غاية العلم في تحليل سيرة محمد،

ودفع هذا إلى التشكيك في حقائق السيرة، والسنة، والطعن في كُتّابها، إلى درجة المطالبة بالاكتفاء بالتنزيل القرآني، بسبب "الحرص على تسلسل الأسانيد وصحتها من دون التحرز من كونها مخالفةً للكتاب المنزّل متنًا" (١٤)، ولم ينتبه أصحاب هذا التشكيك - وربما انتبهوا - إلى أن النص القرآني قد صار إلينا صحيحًا تامًا كما أُنزل على قلب محمد بنفس هذا الحرص على التسلسل من الأسانيد، وفاتهم أن يدركوا أن العقل الجمعي المسلم الذي وثّق هذا النقل ما كان ساذجًا أو سطحيًا للدرجة التي يصبّ همه كله في الأسانيد من غير التحقق من متونها، أو للحد الذي ينشغل فيه "بما يسمع" دون أن يتأكد "ممن يسمع"، فقد أسس كُتاب السيرة منذ البدء؛ منهجيةَ التحري عن نصوص المتون وقواعد السند سواءً بسواء، لكن هذا التشكيك لن يختفي وسيُطل من حين لآخر تحت دعاوى لا تنتهي، يريد أصحابه - بدعوى النقد الموضوعي- القفز على حقائق السيرة وكفاية الحقائق عند كُتّابها الأُوَّل مثل عروة بن الزبير والزهري وموسى بن عقبة وابن إسحاق وابن هشام، والتركيز فقط على قليلٍ من مصادر السيرة المتأخرة، تركيزًا مقصودًا، لإصدار أحكام مبتسرة بعيدة عن التجرد والموضوعية، ومضادة للتواتر التاريخي.

منهجية الكتابة:

لقد صار للسيرة في عناية علمائها؛ لغةٌ مشتركة متداولة، تُحفظ عن ظهر قلب، ما جعلها تبلغ حدًا من التواتر مكّنها من "المحافظة على التزام الرواية فيها باللفظ، وتجنب الاقتصار على المعنى" (١٥)، وظل هذا هو السمتُ الغالب رغم اختلاف المنهج من زمن لآخر، فبينما دأب المؤرخون القدامى على "حشد الآثار، وتمحيص الأسانيد، وتسجيل ما دقّ وجل من الوقائع"، مال المحْدثون إلى "التعليل والموازنة وربط الأحداث المختلفة في سياق متماسك" (١٦)، وأدى هذا التنوع في المناهج المتبعة إلى التكامل في الإجراءات البحثية، فكان إضافة معتبرة، لأن كل منهج هو "طريقة يختارها الباحث أو المجتهد" (١٧)، إذ يشير لفظُ "طريقة" إلى الموضوعية، بينما يشير لفظُ "يختارها" إلى الذاتية، وبهذا يحصل التكامل بين الموضوعي والذاتي الذي "يحد من تسلط الانطباعية في الأحكام" (١٨).

لم ينشغل المسلمون في كتابة السيرة بشيء مثلما انشغلوا بالدقة في إثبات تفاصيلها؛ متونها ورواتها، فلم تعرف أمةٌ في التاريخ ما عرفوا من "**الإسناد**"، وهو مستنبطٌ من مَزيَّة جُبلت عليها أمةُ العرب في كراهية الكذب وكراهية من يكذب، وكانت غايةُ الإسناد هو توكيد صحة الوقائع، وقد أطلق عليه درمنجهم تعبيرًا بديعًا أسماه "سلسلة

الأدلة"[١٩]، ابتدعها المسلمون وأسسوا منها علمًا، وأقاموا معه علومًا أخرى، كالجرح والتعديل والتراجم والطبقات والتاريخ، حتى صار هذا الإسناد "خصيصةً فاضلةً لأمة المسلمين ليس لأحدٍ من الأمم كلها، قديمها وحديثها"[٢٠]، ولم يتأسس الإسنادُ إلا على ضوابط موضوعية في التدوين لحظةً بلحظة وبروايات متقاربة، وعلى ضوابط ذاتية في أمانة النقل، لأن "الصحة في الإسناد لا تُعرف إلا برواية الثقة والعدل عن العدل" [٢١]، هذه الأمانة وإن تبدو للوهلة الأولى معيارًا موضوعيًا، لكنها أيضاً مُعبرةٌ عن الذاتية السوية، حيث "تتعلق أساسًا بالضمير العلمي، والقيم الذاتية للباحث" [٢٢]، لأجل ذلك؛ فإن القول بموضوعية منفصلة عن ذاتية الباحث في أي إجراء بحثي، إنما هو من قبيل الخطأ الذي ليس له مسوغ لصحته سوى أنه شاع بين أوساط الباحثين.

عرفت البشرية مع الإغريق قديمًا، نِتَفًا من الكتابة في سيرِ مصلحيهم وعلمائهم وفلاسفتهم وقادتهم، لكنها ما أوصلتهم إلى بناء منهجية لها قواعدٌ وأصولٌ وتطبيق، وكان للعرب في الجاهلية تدوينٌ شفهيٌ لقصصهم وأيامهم وأمثالهم، برعوا في حفظها وتناقلها من جيل لآخر والاستشهاد بها في سائر أحوالهم، فلما كان الإسلام؛ صنع النصُ القرآنيُ في أفهام العرب ملكةً جديدةً في الحفظ والتدوين والتطبيق العملي للآيات القرآنية في مواقفهم وأحداث حياتهم، خاصة بعدما

أدركوا قيمة الربط الذي ينشده القرآن بين الإيمان والعمل، فمما ورد في الوحي القرآني أن ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ الحشر/ 7، فكانت اللفتةُ المنهجيةُ من النص القرآني المحكم، **أن التلازم بين الرسول والرسالة لا ينفصم. وظلت هذه من مقتضيات الإيمان في الإسلام**، فإنهم يتلقون الرسالة من محمد، وهو الذي يجسد للوعي الإنساني الرسالةَ أفعالًا، وأقوالًا، وأخلاقًا، ومعاملة، فنما هذا الوعي حتى صار للمسلمين في بناء سيرة النبي محمد علمٌ ومنهج، وكان الحَفَظَةُ، وكان الجذر الأحق والأقوى في هذا العلم؛ **أن لا يتواطئوا على كذب**، لا في حق الرسالة ولا في حق الرسول، وامتد هذا الجذر مع امتداد الإسلام وفَهِمَهُ غير المسلمين ممن أدركوا علاقة الرسالة - متمثلة في القرآن الكريم - بالرسول - متمثلًا في محمد - حتى أصبح الاتساق بين آيات الوحي وإنسانية محمد من الحقائق اليقينية التي شهد بها ولها المسلمون وغير المسلمين، لهذا يقول **نيكلسون** "إن صدقَ هذا الكتاب فوق مستوى الشبهات" لأنه "يعكس كل مرحلة من مراحل شخصية محمد ومواقفه وعلاقاته الوثيقة بكل حدث من أحداث حياته، بحيث أصبح لدينا مواد فريدة ذات قوة لا تقبل الجدل" (٢٣)، لهذا السبب نالت حقائق السيرة النبوية هذا المستوى من التوثيق التاريخي الذي سما بها فوق الجدل والارتياب، لصدقها وتفصيلها ومنهجيتها

وإسنادها والروح العلمية الإيمانية التي كانت دائماً وراء حفظها وإثباتها وتدوينها، فلم يترك المسلمون أمرًا يخص النبي إلا عَلِموه وأيقنته بصائرهم قبل أبصارهم، وأفهامهم قبل ألسنتهم، واستفادت السيرةُ مثلما استفادت السنة من المرويات المتعلقة بحياة محمد حتى "صارت معيارًا مُلزمًا، وبذل المسلمون في جمعها ونقلها جهدًا وحرصًا بالغين" (٢٤)، فقد علموا وأدركوا وأحبّوا فعلَ النبي ﷺ، قوله، تقريره، صفته، نومه، يقظته، حله، ترحاله، صومه، صلاته، غسله، وضوءه، ذكره، قيامه، دعاءه، اتصاله بالوحي، صفة بدنه، تفاصيل خِلقته، شَعر رأسه ولحيته، وصف صدره، مشيته، كتفيه، هيئته، كفيه، أصابعه، وقاره، رداءه، بصره، مصافحته، نبرة صوته، غَضْبته، رحمته، بكاءه، حِلمه، عفوه، سماحته، هيبته، أكله، مشربه، صدقه، أمانته، طهارته، حكمته، تأمله، خلوته، صمته، منطقه، فضله، تصدقه، عدله، إحسانه، بره، وُدّه، إكرامه، معاناته، رعيه للغنم، تجارته، إسراءه، معراجه إلى السماء، طفولته، شبابه، أزواجه، بناته، أولاده، عماته، أعمامه، خالاته، أخواله، أجداده، وامتد الاهتمام حتى درسوا مكة وطرقاتها ودورها والكعبة، بيته ومرقده ومقامه فيها، يثرب وطرقاتها ودورها ومسجده وغرف أزواجه، متاعه وزهده، سعيه وبأسه، شجاعته، قتاله، حجة وعمرته، صحابته، وصف صحابته، ألقابهم، مكانتهم، فرسه،

عصاه، ناقته، عمامته، آنيته، خاتَمه، غزواته وسراياه، وفادات العرب إليه، عطاياه، حتى لم يبق هناك شيءٌ متعلقٌ به إلا عَلِموه، فقد صدّقوا، وأدركوا **أن الإيمان الحق بمحمد هو نصيفٌ ينضاف إلى نصفه الآخر وهو الإيمان بالرسالة**، ولم ينكر أحدٌ على الرسول ما عرفوه من تفاصيل حياته، فزادهم إيمانًا، إذ "لا يمكن لأي شخص أن يدحض شيئًا وهو يجهله تمامًا" (٢٥)، ومن الأمور العجيبة أنه رغم المنزلة التي حازها محمد في نفوس المسلمين وفي ضمائرهم، ورغم مقامه الكريم بين الرسل والأنبياء، ورغم النزوع الإيماني المتنامي والقوى – في كل عصر- لمعرفة تفاصيل حياته، رغم هذا كله، لم تغبْ بشريته بين الناس أبدًا، ولا ذهبت طوائفٌ في حبه إلى درجة "**التأليه**"، أو ادّعاء ألوهيته، مثلما ذهبت طوائفٌ وأممٌ أخرى مع أنبيائهم وحكمائهم ومصلحيهم، إلى الحد الذي تجاوزوا فيه حدود المنطق والعقل والعلم، من جهة ثانية: لم توقف رغبةُ المسلمين العارمةُ في معرفة نبيهم: سعيَهم وجهدَهم البحثي في الدرس والتمحيص والتدقيق لتفاصيل سيرته العطرة وسنته الشريفة، إذ "ليس من المتيسر للإنسان أن يفكر تفكيرًا سليمًا في موضوعٍ ما، دون أن تكون لديه البيانات الكافية والمعلومات الضرورية المتعلقة بالموضوع الذي يفكر فيه" (٢٦)، ولعل هذه المسألة تحديدًا كانت الدافعَ الأشدَّ بين المسلمين لإيجاد منهجية التدوين في سيرة محمد،

نعني "**كفاية المعلومات**"، حيث نشأ عن هذه المنهجية: الغيابُ التامُ حتى اليوم لأي محاولة فردية أو جماعية، لإضفاء صفات **إلهية** على شخص محمد، لتظل "إنسانيته" هي الفاعل الأكبر في فهم المسلمين لقدْرِه كرسول، له تميزٌ وتفردٌ ومقامٌ كريم، وهذا يدعو للعجب من هؤلاء المغالين من طوائف الشيعة، ومن المندسّين على مذاهب الصوفية، الذين صنعوا مذاهب شتى في تقديس وتأليه الأولياء والأئمة.

ولعل ما نشهده منذ عقود، هو امتدادٌ متواصلٌ لهذا التيار؛ إذ تسعى أعدادٌ من الذين أسسوا جماعات وأحزاب ومذاهب، إلى تقديس زعمائهم ومنظريهم ومرشديهم، حتى تعالوا ببعضهم إلى فوق رتب الأنبياء وأصحاب الرسالات السماوية، يبدو أن السبب الأول في ذلك، هو عدم "**كفاية المعلومات والحقائق**"، حول سِير تلك الزعامات، والاضطراب المعرفي في وعي تابعيهم، والجهل بجوهر الإيمان في الإسلام، وربما كان لغرضٍ سياسيٍ ليس له من سماحة الدين نصيب، هذا لا يقدح في "**الصالحين**" من الأولياء والأئمة؛ وإنما فيمن يضعهم فوق منازل الأنبياء والمرسلين.

يبدو أن "**الفراغ**" في أي أمرٍ من أمور حياتنا، من جهة وفرة الحقائق التي تجعله معلومًا للناس: يوصل إلى مثل هذه الجهالات، لأن "الفراغ" إن لم يجد ما يسدُّه، تكالبت عليه الخرافة لتملأ مكانه،

فالمُعلمُ إن لم يشغل فراغ الوقت المخصص لمهمته التربوية، نهضت بين طلابه أساليبُ التخريب والشطط، وكذا الطبيب، والمهندس، وكل صاحب صنعة أو مسئولية، حتى الرجل في بيته والمرأة في بيتها، فإن كفايةَ الحقائق؛ تسدُّ الباب في وجه كل تطرف، وتوصد مسارات الانحراف.

وهذه **رسالةٌ**؛ لمن يثق فيمن يحتكر – كَذبًا وزورًا – الخطابَ باسم الدين، ليملأ فراغ العامة من حقائق الإسلام بأباطيل وضلالات، مَن تكنَّوا وتلقَّبوا بأسماءٍ وصفاتٍ وادعوا شعاراتٍ، هي مُكوِّنٌ حقٌ من موروثنا، لكنهم ما فعلوا ذلك إلا إفسادًا للدين، ومسخًا لأثر الإيمان في النفوس، وتشويهًا لحقائق الإسلام النقيّة.

سيادة الروح النقدية:

لم يكن علمُ السيرة النبوية هو المورد الأصيل لمعرفة نبي الإسلام وحسب، وإنما للبحث في مسيرة الإسلام كله، فالتاريخ قد حقق ما جاءت به المخطوطات المعبرة عن الإسلام طوال أربعة عشر قرنًا والتي اشتركت في إنتاجها كتّابٌ عاشوا في بلدان متفرقة، ولم تتح الظروف لأي منهم أن يتعرف بالآخرين، مع ذلك تجد بينهم "تجانسًا في التفكير ووحدة واتفاقًا في الغاية، مما يدل على صدقها" [٢٧]، فصار "الصدق" في حقائق الإسلام وحقائق سيرة النبي طابعًا علميًا فوق كونه "الأصل

الأخلاقي" الذي لم يكن له شبيه في أمة سابقة [٢٨]، إذ من خلاله انطلقت "الروح النقدية" في كتابة أحداث السيرة، وانضاف إليه "الوضوح" حيث بعُدت الكتابة عن الغموض والرموز والتعقيدات التي لا تخلوا منها مادة تاريخية في شتى الحضارات السابقة على الإسلام، يقول **بودلي** في تقديمه لكتابه عن الرسول:

- إننا نجد أن قصة محمد واضحة كل الوضوح. [٢٩]

هذا الباحث وهو يقرر هذه النتيجة، يشير إلى أسبابها في صدق ووضوح الرواية والسند، وقد أسبغ التناغم بين "الصدق والوضوح" معيارًا ثالثًا هو "الصحة" حتى اعتبرت كُتب السيرة الأولى وأبرزها سيرة ابن إسحاق من أفضل وأقدم السير، وروايته فيها "صحيحة إلى حد كبير" [٣٠]، وتكاملت للسيرة روحها النقدية بمعيار رابع هو «الدقة» التي حرص عليها المؤرخون - قدامى ومحدثون - فاعتبرها البعض؛ المرةَ الأولى في الحضارة العالمية التي "يكتب فيها رجلٌ ترجمةَ حياة بهذا التفصيل وهذه الدقة" [٣١]، ونتيجةً لتكامل هذه المعايير الأربعة؛ الصدق، الوضوح، الصحة، والدقة، في تسجيل هذا النص التاريخي؛ سادت الروح النقدية في إثبات حقائق السيرة النبوية، وإثبات واقعيتها، اتساقها، ترابط تفاصيلها، وبُعدها عن التضارب والتناقضات، فلم يعتمد المؤرخون في بناء فصولها على ذاكرتهم وانطباعاتهم، وإنما حاولوا "هيكلة بناء تاريخي، ورجعوا إلى وثائق

وكتابات سابقة في رواياتهم، وأسندوا الروايات الشفوية إلى مصادرها الأصلية" (٣٢)، مما جعل "**التوثيق**" ركنًا جوهريًا، بل ومعيارًا يُضاف إلى معايير "الروح النقدية" في كتابة السيرة، فإن عروة بن الزبير وهو أول من صنّف في المغازي والسير على الإطلاق؛ يعتني بالتوثيق، وفي أقدم نص موجود الآن بين أيدينا عن مدى الدقة التي تحلى بها التابعون في التحري عند الكتابة في السيرة، أن عروة كانت لديه كتب، وكان يأمر أبناءه بنسخها ثم مقابلتها على الأصل المنقول عنه، فقال مرة لابنه هشام:

- كتبت؟
- قال: نعم
- قال: عارضت
- قال: لا
- قال عروة: لم تكتب. (٣٣)

وكان حرص الذين تصدوا لتوثيق حقائق السيرة هو الدافع لنشأة "الجرح والتعديل" حتى صار علمًا في نقد النقل والرواية، إذ بموجبه ميّز الكتاب بين "عدول الناقلة والرواة وثقاتهم وأهل الحفظ والإتقان منهم، وبين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب واختراع الأحاديث الكاذبة" (٣٤)، مما يدل على امتلاك هؤلاء الكُتَّاب القدرةَ على تحديد الضوابط الموضوعية في النقل والرواية، من مثل:

العدل، الثقة، الحفظ، الثبت، والإتقان، ومقابلتها بموجهات الذاتية المتطرفة التي أوقعت الباحثين في أحكامهم الباطلة، من مثل: الغفلة، الوهم، النسيان، الكذب، والاختلاق.

وقد تكاملت السيادة للروح النقدية في كتابة السيرة بالإسناد، لأن كُتّابها اعتبروا " أن الأخبار إذا تعرت عن وجود الأسانيد فيها كانت بترًا" (٣٥)، حيث إنه "إذا ضاعت الأصول ضاع معها التاريخ" (٣٦)، والمرجح أن وراء نشأة هذا الفهم بين كُتَّاب السيرة، هو ما استشعروه من النص القرآني من الحرص على التثبت من الخبر، والحرص على نقاوة كل ما يعبر عن نبي الإسلام، فمن الواضح أنهم رغم محبتهم وتوقيرهم لمحمد إلى هذا الحد، لكنهم " لم يتجنبوا النقد والتمحيص في عملهم، ولحد كبير، كنتيجة لمجهوداتهم، أصبحنا نعرف عن محمد أكثر مما نعرف عن مؤسسي الديانات الرئيسية" (٣٧)، فقد "وضعوا الضوابط العقلية لنقد المتن ليواكب ضوابط نقد السند" (٣٨)، وتجاوزوا في نقدهم هذا حدود التنظير حتى جعلوه ممارسة وتطبيقًا، لكي "يتسم المنهج النقدي الإسلامي بالطابع العلمي" (٣٩)، فكان نقدهم نقدًا متميزًا متفردًا رائدًا مستنبطًا من نصوص الوحي، متشبعًا بروح إيمانية خالصة، لا تعرف المهادنة أو السهو أو التغافل، حتى أنه يمكننا القول: إن المسلمين قد أسسوا منهجًا نقديًا للنصوص والأحداث قبل أن تكون له هيئته التي عُرف بها حديثًا في

أوروبا، وكان له السبق على الفلسفات النقدية الحديثة التي هي في صميمها "روحٌ ومنهج" [٤٠]، لهذا يظل سؤالنا - الذي يُعد من الفرضيات الأولى الموجهة لدراستنا - في حاجة إلى إجابة، وهو:

- **من أين يأتي الخلل، ولماذا، في كثير من الأحكام الصادرة عن نبي الإسلام محمد: بشرًا نبيًا، سيرةً وسنة؟**

مقدمات الخلل في الحكم على إنسانية محمد:

بعد أن قهر الإسلام أوروبا غربًا وشرقًا ووضع له فيها قدماً راسخةً بقوة الفتح الديني، والعلمي، والأخلاقي؛ تحول انتباهُ الأوربيين إلى الإسلام ونبي الإسلام، وطوال القرون التي تلت هذا الوجود؛ صدرت أحكامٌ عدة، تصدّى لإقرارها بعض الذين كانت لهم مكانتهم الدينية والسياسية وأحيانًا العلمية، كانت في أغلبها مضادة للحقائق المتواترة في سيرة محمد وفي الإسلام عمومًا، ومضادة لصحة إسنادها وكفايتها ودقة إثباتها، أطلقها أصحابها بدعوى التجرد والموضوعية، الغريب أن هذه الأحكام قد صار لها نفوذها فانتقلت من جيلٍ إلى جيل، ومن بقعةٍ لأخرى، حتى كادت أن تصبح جزءًا من موروثهم الفكري، مع أن الموضوعية في بحث وتحليل سيرة محمد عليه السلام، ليست في الانفصال عن الأهواء والميول والعصبيات الضيقة، وليست في الثقافات السائدة وأنماط النشأة والتربية، وإنما في كفاية الحقائق

واتساقها وحجيّتها، أما ادّعاء التجرد والموضوعية فهو "الحقُ الذي ما أرادوا به إلا باطلًا"، فحقيقته راجعة إلى ذوات أصحاب هذه الأحكام التي تطرفت في حكمها على الإسلام وعلى نبي الإسلام بأثرٍ من أفكارٍ مسبقة من التراث الفكري والديني اللذين كانت لهما السيادة آنذاك في أوروبا.

ورغم التطور الذي صنعته أوروبا علميًا وفلسفيًا وأدبيًا وفنيًا منذ بدء عصر النهضة، ورغم التوافق بين العلم والفلسفة والأدب، وإضاءات الوعي والإصلاح والتنوير، وممارسات التجريب وثورة الفكر العلمي عند بيكون ثم ديكارت، ودقة النقد وتتابع نظرياته، رغم هذا كله راجت في ثقافتهم هذه الأحكام وانسلخت - هي وحدها دونًا عن بقية الأحكام - عن جادة النقد واستواء النفس، إلى أن تملكت وجدانهم واستقرت لديهم في الدرك الأعلى من الاستهواء من غير دليل.

ما حدث أن هذه الأحكام المضادة للعلم؛ لم تبقْ وقفًا على نطاقها الأوروبي الذي وُلدت فيه ونمت، وإنما عبرت إلى الشرق كغيرها من أفكار ونظريات، فتلقفها بعضنا فتبنوها وتنافسوا في التدليل على تطورها، إلى أن أصبح هؤلاء يشكلون تيارًا يدّعي الحداثة، لا هو دينيٌ، ولا هو سياسيٌ، ومن حين لآخر ينشط هذا التيار تحت دعاوى كثيرة وغايات أكثر، أقلها الطعن في مصادر السيرة النبوية؛ محتواها

وكتّابها، وأعظمها إنكار نبوة محمد ﷺ، وهم يعلمون أن هناك أحكامًا ونظرياتٍ صدرت منذ قدماء اليونان على لسان فلاسفة وعلماء، وآمن بها الناس طويلاً إيمانًا مطلقًا ولم يجرؤ أحد على مخالفتها، حيث اعتقدوا صحتها واستقرت في ذاكرتهم الجماعية، وجاء العلم بعدها بمعطيات وأدلة يقينية تثبت أن تلك الأحكام والنظريات قد تشكلت وعاشت وهي باطلة، وهذا معناه أن مراجعات العلماء لتحليلاتهم ونظرياتهم هو "**واجبٌ علمي**" وأن نقدهم لأحكامهم هو "ضرورة أولى" من ضرورة التحري والبحث عن الحقيقة.

يبدو أن هذا التيار يمثل امتدادًا لما صاحب الإسلام بعد انطلاقته الأولى خارج الجزيرة العربية، إذ "ظلت العقيدة راسخة في يقين المسلمين ما استقرت في وجدانهم، فلما عظمت الفتوحات وتناحرت الثقافات وازدحمت الساحة بأجناس شتى وملل متباينة، تنازعت العقيدة خصومات وشبهات عدة" (٤١)، طالت النبوة والرسالة والوحي، ولعل وراءها عصبيات الذين تخلوا – ظاهريًا - عن معتقداتهم رهبةً من قوة المسلمين وقتها، أو تحسرًا على ما فقدوه من السلطة والنفوذ، لسنا مع أو ضد "نظرية المؤامرة" لتناقضها مع العلم وإجراءات البحث، نحن مع حقيقة "**المغالبة**" في الوجود بين الأفراد والأمم والفلسفات والأفكار والنظريات، لكن أسوأ ما في

المغالبة أن تفقد هذه المغالبة أخلاقها، فبدلًا من اللجوء إلى جهد الباحثين العلمي؛ يتحول المغالب إلى "رسم صورةٍ محددةٍ قائمةٍ في نفسه، منصوبةٍ لعينيه، يرسمها لهدف معين مقصود لذاته" (٤٢)، وتلك هي المغالبة بالعصبية كالتي آمن بها ابن خلدون عندما قرر بأن "الغلب إنما يكون بالعصبية" (٤٣)، لكننا نعني المغالبة بالعلم وحيادية البحث ونزاهة الأحكام.

ولسنا أيضًا مع الجنوح للمجاملة أو المواربة، بنفس القدر الذي نريد به الكشف عن أساليب الإجحاف في هذه الأحكام، فما نسعى إليه هو الحرص على التئام الضوابط الموضوعية والذاتية في تقرير أي حكم يمس إنسانية محمد عليه السلام.

هناك مساحةٌ تتقاطع فيها الموضوعية والذاتية، لا تُرى ويصعب تقديرها أو تحديدها، هي مساحةٌ إيمانية، تدعو الباحث في العلم أن يفسح المجال لبصيرته لتحري الحق وبناء حُكمه، بقوة العلم لا بقوة الموروث من الأفكار والتربية، فلعل جوهر الإشكالية في هذا الإطار راجعٌ إلى أن أغلب الجهد بين العلماء في أوروبا منذ بدء النهضة، قد ضيّق الخناق على البصيرة لحساب البصر والحس المادي، حتى كانت السطوة لهذا المادي فوق ما يملك العلماء من حدس، ومقتضيات العلم تأبى أن تتضخم ثقةُ العلماء إلى هذا الحد بما هو مادي، كما لا ينبغي أن يكون هناك وجودٌ في العلم لما يسمى بفكرة "العزة بالإثم"،

فالعزة في العلم لا تؤخذ إلا بعلم وليس بالجرأة على العلم وضوابط البحث، إن من يتجرأ على كفاية النص التاريخي وصحة سنده وقوة حجته، لا يؤسس جرأته على حق، إنما يؤسسها على مغالطة، ويلجأ إلى الإنكار والتبرير والاستيلاء على أدمغة الناس ومشاعرهم بالانتقائية والاستنتاج القسري، وباقتلاع تفاصيل التفاصيل الواردة ضمن النصوص والوقائع، لاستخلاص ما يريد، استخلاصًا تعسفيًا.

وأخطر ما يمكن أن تأتي به "**الجَرأة**" على العلم والبحث العلمي: أن تتعهدها أنظمةٌ ومؤسسات تدّعي النزاهة والحيادية، لأنها تستبدل قوة العلم بقوى أخرى لا علاقة لها بالعلم، وهذا يوصل إلى " اختلال موازين العقل أو موازين الوجدان" (٤٤)، ويوجه البحث لكي "يُستخدم لتبديد اتجاهاتنا وتعصباتنا" (٤٥)، مما يسلب العلم هيبته ويبدد الرصيد الإنساني للباحث ويدفعه إلى استنباط أحكام بغير حقٍ على نبي الإسلام، حيث تعلو في ذوات العلماء الباحثين قوة التطرف فوق قيم الاعتدال، فيضطرون إلى تفسير ما "لا يملكون حتى إطارًا لهذا التفسير"(٤٦)، فتغيب معه قدراتهم على نقد أنفسهم وموضوعاتهم وأحكامهم، وهذه من أوّليات الإجراءات البحثية، لأن الناقد "يجب أن يكون ذا حظ كبير من العقل، وحظ كبير من الذوق" (٤٧)، ليُفعّلَ أدوات الضبط الموضوعي والذاتي في عمله البحثي، إذ هناك أنماطٌ من الباحثين المستشرقين الذين لديهم عدواتٌ غير مبررة عن أي فكر

يُعبر عن سيرة أو إنسانية أو أخلاق محمد، تصيبهم عوارضٌ غريبة إذا وقعت عيونهم - فيما يقرأون- على وصفه وفعله ورسالته، فيتوجهون بالكلية إلى "تشويه صورة الإسلام تعويضًا عن إحساسهم بالنقص" (٤٨)، عن طريق إصدار أحكام مبنية على الطعن في محمد أو في القرآن، فتكون أحكامهم معبرةً عن "تعصب ديني أعمى أو جهل أحمق" (٤٩)، وكل حكم هذا حاله؛ ينبغي معالجته وتحليله بروّية، لاستجلاء ما يحمل من محددات "الخلل"، وهذا هو الموضوع الذي سنتمم به دراستنا في هذا الجزء من "إنسانية محمد".

محددات الخلل:

إن الخلل الحاصل في أحكام العلماء حول إنسانية "محمد"؛ لا يخرج عن محدداتٍ ثلاثة:

- الأول: مبعثه هو "**الخلل النفسي**" الذي يعطل الضوابط الذاتية ويؤثر في مداخل العلماء لفهم موضوع البحث ومصادر المعلومات ووقائعها الدالة عليها، هذه الضوابط الذاتية لها أبعادٌ عدة، من مثل: الأمانة، التواضع، الإخلاص، والتقدير كأبعاد **أخلاقية**، والثقة، والرغبة كأبعاد **نفسية**، والنشأة والقناعات والموجهات كأبعاد **تربوية**، إضافة إلى القدرة ببعديها **العلمي** و**اللغوي**، وهذه الأبعاد تتصل

بالباحث "الإنسان"، ولها استقلالها عن موضوع البحث، لذلك فهي **ذاتية**، ويدلنا وجودها على درجة الاستواء أو التطرف في الحكم.

- و**الثاني:** مبعثه "**الخلل المعرفي**" الذي يعطل الضوابط الموضوعية، من مثل: القدرة على التحقق من موضوع البحث، ودرجة الدقة في التنقيب عن حقائق هذا الموضوع، والقدرة على الفصل بين الحقائق والانطباعات الخاصة، وفحص الحقائق وتوثيقها وتحليلها والربط بين عناصرها، وتحديد صدقها وجدّيتها ودرجة اتساقها، واستنتاج ما بينها من علاقات ومقارنات ومقاربات، ولها استقلالها عن ذات الباحث، لذلك فهي **موضوعية**، ويدلنا وجودها على درجة الكفاية من الحقائق والأدلة في موضوع البحث.
- **والثالث:** مبعثه "**الخلل المنهجي**" الذي يعطل الضوابط الذاتية والموضوعية معًا، حيث يمتد تأثيره للباحث وموضوع بحثه، فيعطل مسارات العلم واجراءاته البحثية، ويصنع الفروق الشاسعة بين الباحثين في أحكامهم على الموضوع نفسه.

وفي تاريخ الفكر العديد من الشواهد الدالة على هذه المحددات الثلاثة من الخلل، إذ هي فوق الحصر، وتوجد متداخلة متشابكة،

حيث يصعب تحديد المؤثر النفسي فيها أو فصله عن الخلقي أو التربوي أو العلمي أو المعرفي أو المنهجي، وتشير إلى درجة التخبط في فهم المادة التاريخية في سيرة محمد، وإلى أي مدى تتأثر أحكام الباحثين بموروثاتهم الفكرية والتربوية، تأثرًا سلبيًا مضادًا لمقتضيات المنهج العلمي، سواء أكان هؤلاء الباحثين من المستشرقين أم من المسلمين.

وسنحاول أن نُخضع للتحليل والنقد، مجموعة الشواهد التي تم اختيارها، للدلالة على محددات الخلل الثلاثة، ومن **أبرزها:**

(١) التعسف في الحكم:

فالباحث **له الحق** في تحديد موضوع بحثه واختيار مصادره وترتيب وتصنيف معلوماته وتقرير كفايته من الحقائق، **وله الحق** في الفهم والتحليل والربط والاستنتاج والحكم، شريطة ألا تخرج إجراءاته هذه عن ضوابط المنهج، لأن "أشد ما يميز العلم هو المنهج" [٥٠]، فإن تجاوز المنهج أخذه البحث دون أن يدري إلى نوعٍ من التعسف في الفهم الذي يوصله إلى التعسف في الحكم، **والتعسف** خللٌ منهجيٌ معرفيٌ بالدرجة الأولى، لا يعدم الأثر النفسي، وهو نقيصةٌ في إجراءات البحث، وأخطر ما في التعسف أن يجتمع عليه عددٌ من الباحثين، كمن أنكروا الأحداث المهمة التي عاشها النبي محمد قبل

بعثته، وكان لها أثرها، رغم تواتر خبرها وصحة إسنادها وإجماع المصادر على ذكرها، يقول **مرجليوث** "ظل محمد لسنوات عديدة مواطنًا محترمًا، تاجرًا عاديًا، لا يعتريه شيء استثنائي حتى بلغ سن الأربعين" (٥١)، يؤيده **نيكلسون** في أن محمدًا "لم يكن سوى رجل قرشي عادي، وبالكاد يمكن اعتبار أي شيء يتعلق به قبل ذلك الحدث تاريخيًا، باستثناء زواجه من السيدة خديجة"(٥٢)، وسار الباحث الفرنسي **جاك ريسلر** في الوجهة نفسها حين يستنتج أننا "لا نملك الكثير من الشواهد المؤكدة عن حياة محمد طفلًا أو شابًا، وكانت قبيلته تطلق عليه الأمين" (٥٣)، وبتحليلٍ بسيط لهذا الحكم الذي يحمل تناقضاته في طياته؛ ندرك قدر التعسف في الفهم الذي يقفز فوق الوقائع التي دونتها واتفقت عليها مصادر السيرة، بدءاً من ولادة النبي، يُتْمِه، رضاعته، ذهابه للبادية، تعففه عن عبادة الأصنام، رفضه اللهو والشراب الذين كانا من العادات الأصيلة لعامة قريش، احتكام سادة قريش إليه في وضع الحجر الأسود، ثقة قريش في أمانته على ودائعهم، وصدقه فيهم ووصفه اتفاقًا بينهم أنه "الصادق الأمين"، كما تضمن هذا التعسف تجاوزًا لحقائق مؤكدة، يبدو أن للموروث الفكري والتربوي أثرًا شديدًا في صنعه، يقول **لوبون** في "حضارة العرب": إن التاريخ لم يخبرنا عن سيرة محمد في السنين الخمس عشر التي انقضت بعد زواجه بخديجة، وبعدها

بسطرٍ واحدٍ يكمل بقوله " لم يتكلم محمد عن بعثته إلا بعد بلوغه الأربعين من عمره، بعد أن كان قائمًا يتحنث على جبل حراء الذي يبعد ثلاثة أميال من مكلة، مثلما يفعل كل سنة" (٥٤)، فهل تغافل - رغم ميله للإنصاف - عن أن يعيَ أن نبوة محمد ليست من صنعه ولا من ترتيبه، وأن محمدًا ظل يتحنث طوال السنين التي انقضت بعد زواجه من خديجة حتى لحظة تكليفه بالرسالة ؟!

فكيف يمكن الثقة – علميًا وتاريخيًا – بحكم ينطوي على كل هذا التعسف في الفهم، وعلى تجاوز لحقائق، وإنكار لأخرى؟!

(٢) إنكار الحقائق:

من بديهيات البحث العلمي، أن يتخذ تفكير الباحث مسارًا علميًا "لا يكتفي بالملاحظات ليصنع منها قانونًا أو نظريةً، إذ لا بد أن تكون الوقائعُ كافية" (٥٥)، إن كفاية الحقائق مؤكدةٌ ومبررة لصحة الحكم، هذه الكفاية هي ضابطٌ موضوعي، فإذا ما صدر حكم لا تدعمه الكفاية من الحقائق المعبرة عن وقائعه، فَقَدَ علميته وانقطع عن أسانيد صحته، مثلما يحدث في ساحات القضاء حال عدم كفاية الأدلة.

ونبوةُ محمد حقيقة، وبكل المقاييس، مبينةٌ على توثيقٍ تاريخي وعلمي، ديني وأخلاقي، وإنكارها – تجاهلًا أو تغافلًا، سهوًا أو قصدًا – يُفقد

أي حكم يطال النبي محمد شروط صحته، ففي هذا الإنكار خللٌ متكامل، نفسيٌ في المقام الأول، يسانده خللٌ منهجي وخللٌ معرفي، ولهذا الإنكار إشاراتٌ تدل عليه، يقول **ول ديور انت**:

- إن أمية محمد لم تحُلْ بينه وبين قدرته على تعرف الناس تعرفًا قلما يصل إليه أرقى الناس تعليمًا. (٥٦)

هذا الحكم يشير إلى إغفال الباحث لعنصرٍ جوهري من عناصر موضوع بحثه، هذا الإغفال فيه إنكارٌ لحقيقة مهمة لا تقل أثرًا في إنسانية محمد عن بشريته، هو نبوته.

وفي مَثَلٍ آخر، يقرُّ جورج بوش بدهشته – وليس بالتحليل المنطقي والتاريخي – لقدرة الإسلام على السيادة الدينية التي مكنته من النمو السريع والانتشار الواسع والبقاء الدائم، إذ يقول:

- إن محمدًا وضع أساس إمبراطورية تمكنت في غضون فترة قصيرة لا تتجاوز الثمانين عامًا من بسط نفوذها على الكثير من الممالك والبلدان متجاوزة ما تمكنت روما من الاستيلاء عليه في ثمانمائة عام. (٥٧)

<u>هذا الحكم؛ ارتكب كثيراً من مضادات العلم، هي:</u>

- إنكار الباحث – عمدًا – لحقيقة نبوة محمد ﷺ، وأثرها في نمو الإسلام.

- وإنكاره لكثير من الحقائق الأخرى المفسّرة لانتشار الإسلام، من مثل: صدق الدعوة، صدق الرسول، الروح الإيمانية بين أصحاب الدعوة، شدة وطغيان الظلم السياسي الذي كان سائدًا في هذه الممالك والبلدان، وكراهية الناس فيها لمعتقداتهم البالية التي أُجبروا على اعتناقها.
- وعدم ضبط معايير المقارنة التاريخية بين امبراطوريتي الروم والإسلام، اللذين تزامنا لسنواتٍ طوال، فقد توقف الباحث عند "**زمن**" التأسيس والقوة في الحضارتين، وتجاهل بقية المقارنة في "**زمن**" الاستمرار والبقاء، إذا بينما ضعفت إمبراطورية الروم وتوارت في مائة عام لأسباب عدة على رأسها الانحلال الأخلاقي، فإن الحضارة الإسلامية – ورغم عثراتها – لم ينقطع وجودها وأثرها لأكثر من أربعة عشر قرنًا.

فهل لم تفصح تلك المقارنة للباحث عن شيء؟

مجرد سؤال – تقتضيه ضرورة العمل البحثي – الظنُ أنه من قبيل الأسئلة التي تحمل في طياتها إجاباتها.

فليس هناك دليلٌ على وجود الخلل في بحث ما؛ مثلما يدل عليه إنكار حقائق جوهرية، كالتي وقع فيها كثيرٌ من الباحثين بإنكارهم نبوة محمد، **يتساءل فنسنك**:

- هل كان محمدٌ نفسه مستعدًا لاختصار الإسلام إما في عبارة موجزة أو في عقيدة ؟، لقد رأينا أنه على ما يبدو لم يكن يريد أن يفعل ذلك، سواء في القرآن الكريم أو في وثائقه الدبلوماسية، أو كما يبدو في أقواله، ويتفق ذلك تمامًا مع شخصيته. (٥٨)

في هذا الحكم كشفٌ بيّنٌ عن نسيجٍ متشابكٍ من متلازمة "**الخلل البحثي**"، أولًا في غموض العبارة؛ من حيث مفرداتها ودلالاتها، وهو خللٌ معرفي، يُضاف إليه إهمالُ الإشارة لحقيقة نبوة محمد وهذا خللُ نفسي، مع خللٍ منهجيٍ في عدم بناء الحكم على مكونٍ رئيسٍ من موضوع البحث وهو "مقتضيات النبوة"، إضافة إلى عدم الربط بين أخلاق محمد في صدقه وإيمانه بدعوته مع ما يطرحه السؤال، وهذا دالٌ على خللٍ منهجيٍ نفسي.

هكذا يكون مجموع ما وقع فيه هذا الباحث من الغموض والغفلة والإهمال؛ هو ما يوضح بشكل حاسم إنكاره لحقائق مهمة أفقدته متطلبات الصحة لحكمه.

ورغم صعوبة الجزم بوجود "سبق الإصرار" في مثل هذا الإنكار، وهذا يعتبر حجر عثرة أمام المحققين لأحكام العلماء، لكننا – في دراستنا – ونحن نحلل هذه الأحكام؛ لا نصدر أحكامًا كلية على الباحث أو على جهده العلمي كاملًا، إنما ينحصر جهدنا في تحليل مواطن الخلل، وبالتالي فحكمنا هو حكمٌ جزئيٌ محدد مقدر بقدره.

ذهب **بودلي** إلى أنه:

- من المؤلم لمحمد أن يرى فرعي التوحيد اللذين سبقاه في التاريخ، لا يرغبان في الدخول معه في أي نوع من المساومة على عقائدهم، على الرغم من تلك العواطف التي أبداها لليهود والمسيحيين. (٥٩)

فانطوى هذا الحكم على إنكارلحقائق أساسية، هي:

- نبوة محمد عليه السلام
- وختامية الإسلام لدين الله في الأرض
- وأصول وقواعد الدعوة في شريعة الإسلام

وكان نتيجة الإنكار؛ أن الباحث قد افترض أن في أخلاقيات محمد مساحةً للمساومة على "عقيدة التوحيد" مع اليهود والنصارى، وهذا أدى به إلى أن يبني حكمه على إنكارٍ لحقائق أصيلة في موضوع بحثه، فجانب الصواب والصحة معًا.

إن "**إنكارالحقائق**" إذا تسلل إلى عملٍ بحثي لا يتوقف عند حد، وهذا ما حدث فيما يتصل بالبحث في موضوعات السيرة النبوية، بدءًا من إنكار نبوة محمد، إلى إنكار أثر النبوة في فهم محمد للناس، إلى إنكار أثر الإيمان في بناء قدرة المسلمين على السيادة في الأرض، إلى إنكار أثر أخلاق محمد في ثباته وفي دعوته وعدم جنوحة للمساومة عليها،

حتى امتد الإنكار إلى ما أُنزل على محمد من وحي السماء، يقول **أوليفر ليمان**:

- نادرًا ما تتضمن النصوص القرآنية المصممة لتكون أساس الإيمان بيانات دقيقة فلسفيًا أو علميًا فيما يتعلق بخلق العالم.(٦٠)

فأنكر هذا الباحث أن القرآن هو كتاب الإسلام المنزل من عند الله تعالى، وأنه ليس كتابًا فلسفيًا أو كتاب علم طبيعي، وأنكر أن كثيرًا من الآيات القرآنية قد تحدثت عن الخلق في الكون، الإنسان، الحيوان، النبات، الأرض، السماء، والظاهرات، دقيقها وعظيمها، بتفصيلٍ وصحة علمية أكدتهما إثباتات العلم التجريبي الحديث والمعاصر، وأنكر أن في سياق الوحي القرآني آياتٌ من الحكمة والاعتبار والنظر في الوجود، فيها ما يفوق تفلسف الفلاسفة وحكمة العلماء، لكن هذه الآيات لا ينالها أو يلتفت إليها إلا الموقن بصدقها، فأقام إنكاره جدارًا سميكًا حجب عنه شروط الصحة لحكمه، وأوقعه في متلازمة الخلل البحثي وفتح أمام العلم مدخلًا عريضًا للتشكيك في سلامة إجراءاته البحثية.

(٣) <u>عدم التمييز بين الحقائق:</u>

للنقد العلمي ضوابط، إذ ما توافرت مكنت الناقد "الباحث" من أن يعزل ذاته عن النصوص والوقائع والظاهرات، بالدرجة التي تضمن له عدم التطرف في فهمها والحكم فيها، لأن مهمة الناقد "يجب أن

تقوم على أساس موضوعي محايد، وأن تستخدم وسائل محايدة، وهي التحليل والمقارنة" (٦١)، فالتحليل والمقارنة أداتان ضروريتان للفهم، بدونهما تتشابك المفاهيم وتتداخل، ويتسرب ذلك إلى الحكم، ويدل على وجود خللٍ مؤثرٍ فيه، من ذلك: ما فهمه **نولدكه** أن "ليس للإسلام أي أسرار دينية باطنية، على الرغم من احتوائه على عدد من العبادات الخارجية" (٦٢)، فتخلى عن التحليل والمقارنة بين الإسلام من جهة، وأثر الإسلام في المسلمين من جهة ثانية، فأصبح كل مفهوم منهما - في تصوره هو وحده - له نفس دلالة الآخر، وهذا خللٌ منهجيٌ معرفي، منهجيٌ في إهمال الباحث للمقارنة بين المفهومين، ومعرفيٌ في عدم كفاية الباحث من جمع وفحص الحقائق الدالة على كلا المفهومين، وقد وقع كثير من الباحثين من المستشرقين، بل ومن الباحثين العرب حديثًا في هذا الخلل.

إن نولدكه لم يميز بين المفهوم الدال على دين "الإسلام"، وبين مفاهيم ما أنتجه المسلمون من علوم مثل مفهوم "التصوف"، لأن التصوف ليس الإسلام، وليس جزءًا من الإسلام، إنما هو نتاجٌ إسلامي، نما وشاع بين المسلمين في سلوكياتهم وتجاربهم، وبرز بين رجال الصوفية في مذاهبٍ ونظريات وأقوال وأفعال، ومعلومٌ أن لدى المتصوفة في إطار التجربة الصوفية: تفرقةً بين الظاهر والباطن في التجربة الصوفية الذاتية الفردية المختلفة من صوفي لآخر، بينما في

جوهر الإسلام ليس هناك إلا التطابق والتلازم التام بين الظاهر والباطن، رغم تمايزهما.

ومثلما يدل "عدم التمييز بين المفاهيم" على خللٍ منهجي معرفي، فإنه يدل أيضاً على خللٍ نفسي، يقول نولدكه "إن فكرة محمد عن الإله هي في الأساس تلك الفكرة الموجودة في العهد القديم" (٦٣)، رغم أن أحدًا – للآن - لم يأت بدليلٍ واحدٍ على هذا التصور الذي شاع بين المستشرقين ويدّعي أن محمدًا قد اطلع العهد القديم، فضلًا عن كافة الأدلة التي توثق أمّية النبي محمد، فإن المفهوم الدال على "الإله" في العهد القديم لم يبق على حاله كما تلقاه موسى، ويوثق علماء مقارنة الأديان هذا الاختلاف، إضافة إلى أن الأديان المنزلة اتفقت وتطابقت في مفهوم "التوحيد" المنزه عن كل تمثيلٍ أو تشبيهٍ أو تجسيم، وما تلقاه محمد عن الله سبحانه لم يكن "فكرة"؛ وإنما عقيدة تكاملت بشكل تجاوز كل ما ورد في الأديان المنزلة السابقة على محمد، ليؤكد ختامية الرسالة وختامية الرسل، وهذا دالٌ على أن هذا الباحث أصابه خلطٌ شديد في دلالات المفاهيم، ما أدى به إلى هذا الخلل النفسي في الحكم.

وأحيانًا تدفع قدرة الباحث المتدنية في التمييز بين المفاهيم، إلى الادعاء بقدرته على الكشف عن مقاصد الناس ونواياهم وما يعتمل في ضمائرهم، هذا الكشف وبهذه الطريقة "معطلٌ للمنهجية لأنه

يضع الدارس في نفس الحلبة مع كاتب من كتّاب الماضي، ثم يدّعي أن بينهما تفاهمًا تلقائيًا" (٦٤)، من ذلك ما وثقه **جورج بوش** في شهادته أن أتباع محمد كانوا يُمجّدون إحسانه وإنكاره لذاته ليصبح بذلك قدوةً ومثلًا يُحتذى به، ويقولون إنه نادرًا ما كان يملك أي أموال في بيته ولم يحتفظ بأكثر مما كان كافيًا لإعالة أسرته، ثم يعطي بوش لنفسه "حق الكشف" ليس عن ضمائر كتّاب السيرة وحسب، وإنما عن ضمير النبي محمد صاحب السيرة، ليقرر أنه " قد يكون هذا صحيحًا، لكنه في تكوين حكمنا لعرض هذه السمات الأخلاقية، فلا يمكننا أن نتناسى أن محمدًا كان لديه غاياتٌ خاصةٌ يلبيها" (٦٥)، فأوصله هذا الحكم إلى خلطٍ بين المفاهيم الدالة على صور الإحسان في الإسلام، وخلط بين الأسلوب **التقريري** بقوله " كان أتباع محمد يمجدون إحسانه" والأسلوب **التقديري** في قوله " كانوا يقولون إنه نادرًا ما كان يملك في بيته أي أموال"، وعدم التمييز بين "إحسان محمد" و "الغايات الخاصة" التي أدّعى وجودها - دون دليل- حين يقول " لا يمكننا أن نتناسى أنه كان لديه غايات خاصة يلبيها"، فما هي "الغايات الخاصة" تلك، وأين ما يؤكد وجودها، عند من يقضي عمره - دون هوادة - في إحسانٍ لا ينقطع؛ قولًا وفعلًا وتقريرًا، إيمانًا وممارسة ؟!

(٤) الاستنتاج القسري:

الاستنتاج في البحث العلمي مهارةٌ وفن، وأداةُ تنقيب في النصوص والأفكار، نصل باستخدامه إلى نتائج وأحكام جديدة.

والاستنتاج بلغة المنطق، والتحليل الرياضي، ومنهجية التجريب، له أصولٌ، ومبنيٌ على قواعد، بفضل تطبيقاته الدقيقة تتصف أحكامنا بالصحة.

وكثيرًا ما يدلُّ الاستنتاج على مهارة الاستنباط، فقد ورد في المعجم الوسيط أن "استنتج الشيء" أي حاول نتاجه، واستنبطه أي استنتج الحكم من أدلته، [٦٦] ولذلك تعد "الأدلة" هي مناط عملية الاستنتاج، مثلما يرى الجرجاني في التعريفات أن الاستنباط هو "استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن" [٦٧]، هكذا يكون الاستنتاج والاستنباط عمليتين عقليتين، ربما يتداخلان، أو يتتابعان في الدلالة الاشتقاقية والاصطلاحية، لكنهما أداتان للبحث نتمكن بهما من إضافة أحكام إلى ما نملك من أحكام سابقة، ومن يتصدّون لبحث سيرة النبي محمد وتحليل إنسانيته، سيضطرون لتوظيف مهارتي الاستنتاج والاستنباط، لكن العبرةَ في هذا التوظيف تكمن في تدعيم ما نستنتج بأدلةٍ واقعية حقيقية وبراهين، لنضمن صحة أحكامنا، فإذا فقدت الأحكام كفايتها من الأدلة صار الاستنتاج قسريًا، كالذي ذهب إليه استنتاج بعض الباحثين أن مهمة محمد في

الناس لا تتجاوز مهام المصلح الديني أو الواعظ أو شيء من هذا القبيل، رغم أن من هؤلاء من يُقرُّ في مواضع أخرى ويؤكد نبوة محمد ﷺ، يقول **واشنطن إيرفنج**:

- تتحدث العديد من الآيات القرآنية عن تلك الفكرة التي ظهرت تدريجيًا في ذهن محمد وتملكته كليًا، حتى غدت تنغمس في أفكاره وتؤثر في جميع أفعاله، ألا وهي الإصلاح الديني. (٦٨)

وقد تكرر نفس هذا الاستنتاج القسري عند كثير من المستشرقين، متجاوزًا الأدلة التي تثبت تكامل الدين في رسالة الإسلام، بأعظم وأكبر وأشمل مما يعنيه "الإصلاح الديني"، هذا التكامل الذي فيه الدليل على اختلاف رسالة محمد النبي الخاتم عن:

- دعوات عرفتها العرب قبل بعثة محمد: إما ترفض الوثنية العربية، أو تدعو للعودة إلى حنيفية إبراهيم، أو تبحث عن هَدْيٍ جديدٍ ورسولٍ جديدٍ آن أوانه.
- وعن نماذج المصلحين والوعاظ الذين تذخر بهم سجلات الأمم، وكانت دعواتهم جهدًا بشريًا خالصًا.
- وعن نماذج المصلحين؛ دينيًا واجتماعيًا، الذين عرفتهم أوروبا في العصور الوسطى.

كما يعتبر الانتقال - دون مسوغ منهجي - بحكم جزئي هو "الإصلاح الديني" لتعميمه على غايات ومقاصد وكمالات الإسلام جميعًا؛ هو من قبيل الاستنتاج القسري.

في بعض الأحيان؛ يتم الاستنساخ قسريًا من غير إشباعٍ عقلي، ببناء الحكم على ما هو ظني أو شعوري أو احتمالي، من ذلك ما أصدره **نيكلسون** بقوله:

- أنا أشعر ومقتنع تمامًا بأن محمدًا لم يكن محتالًا متجرءًا ولا مفسدًا عصابيًا ولا مُصلحًا اجتماعيًا، بل لقد كان ومنذ اللحظة الأولى وفي جميع الأحوال مؤمنًا مخلصًا، نزل عليه الوحي شأنه شأن أي نبي من الأنبياء(٦٩)، وتصدير هذا الحكم بالاعتماد على دلالة "شعور" الباحث بدون تقديم ما يؤكده؛ يقطع الرابط بين الباحث وصحة استدلاله، رغم أن هذا الحكم - نبوة محمد وإخلاص محمد – هما صحيحان ومؤكدان، بمعزلٍ عن شعورِ هذا الباحث.

(٥) القصور في الرؤية:

في الغالب لا يوصل سوء الفهم لموضوعٍ ما؛ إلا إلى حكمٍ ناقص ومشوه، ولهذا السوء من الفهم أسبابٌ عديدة، منها:

- النظرة الأحادية، التسرع، الاندفاع، غياب المنهجية، التعصب لفهم معين، والتركيز على جزئية أو جزئيات محددة في الموضوع وإهمال الأخرى.

هذا يؤدي إلى غياب النظرة الشمولية للموضوع لدى الباحث، ومن ثم إلى القصور في رؤيته على نحوٍ متكامل، هذا القصور هو خللٌ في الفهم، سيؤدي لا محالة لخللٍ في الحكم، ولم يتضرر شيءٌ - من آثار هذا القصور - كالذي ناله الإسلام: في رسالته ونُظمه وحضارته، حيث هناك "الكثير من سوء الفهم عن الإسلام دونًا عن سواه من ديانات العالم" (٧٠)، وطبيعيٌ أن كلُ أثرٍ من سوء الفهم الذي ينبني عن الإسلام؛ سيمتدُّ لنبي الإسلام، من ذلك ما فهم بعض الباحثين أن محمدًا كان عليه أن يهادن قومه من العرب لكي يضمن إقرار رسالته، إذ يقول **لا مارتين**:

- كان ينبغي للأفكار والمبادئ التي كان محمد ينوي إقرارها في جزيرة العرب، أن تكون على صلة بما استقر في أعراف بني قومه، حتى يقبلوها ويأخذوا بها. (٧١)

وهذا قصورٌ في فهم جوهر الإسلام وأخلاق النبي، فليست الرسالةُ وما تحمل من وحي إلهي ونُظُم وعقيدة وعبادات ومعاملات، من صنع محمد ليوائم بينها وبين أعراف قومه، إنما يظل محمدٌ هو النموذج الإنساني الذي تكامل فيه وبه الإسلام.

إن قصور الرؤية داءٌ، يوّرث صاحبه ضعفًا في الإدراك لموضوع بحثه وتهاونًا في الإحاطة الواجبة بأبعاده، لهذا اعتقد **لامارتين** أن غايات النبي محمد كانت في بناء دولة "عربية" ودين "عربي" وقد أيد **ماكسيم**

رودنسون المؤرخ الفرنسي المعاصر، هذا الفهم من هذا الحكم إذ يقول:

- لقد تمكن النبي محمد من بناء دولة عربية مستوحاة من دينٍ عربي، وبات من الجلي أن هذه الدولة كانت تقوم بتلبية أعمق احتياجات جزيرة العرب. (٧٢)

ما أوقعهما في "**القصور**" من الفهم الصحيح لنبي الإسلام والإسلام، إلى درجة الوصول إلى حكم فيه إنكارٌ لحقيقة الخاتمية، وفيه تصورٌ مغلوطٌ يضع رسالة الإسلام على قدم المساواة مع ثورات الإصلاح التي شهدتها أوروبا، وفوق هذا كله؛ فيه تعصبٌ عرقيٌّ صريح، أفقد الحكم اتزانه وصحته.

هكذا القصور في الرؤية يسوق صاحبه إلى اختلالٍ في ضبط وترتيب حقائق الموضوع، على النحو الذي يمكنه من ضبط الحكم، يرى **مرجليوث** أنه:

- لم يكن من الممكن أبدًا وجود أي التباس في القرآن الكريم بينما كان الرسول حيًا. (٧٣)

هذا الباحث لم يرد أن يستوعب أن نصوص الوحي الإلهي تمثل "**القرآن**" كتاب الإسلام، وفيه تمامُ الدين من عند الله سبحانه، وتنجلي حقائقه عصرًا بعد عصر، وفهمًا بعد فهم، فقد كان الإيمان عند بدء الدعوة قلبيًا تؤيده نموذجية الرسول في تجسيد الآيات

خُلقًا ومعاملة بين المسلمين، ثم تحول أمر الإيمان بعدها إلى إعمال كبير للعقل، لذلك فإن مواجهة الالتباس في آيات القرآن الكريم مرهونٌ بالاجتهاد في الفهم والإخلاص في التطبيق، فضلًا عن أن هذا القصور في الرؤية قد أبعد مرجليوث عن أن يميز بين المحكم والمتشابه من آيات القرآن، ولم يبذل ما ينبغي عليه من درسٍ وفهمٍ للغة العرب؛ في مفرداتها وتراكيبها، مادتها وروحها، ما أوقعه في خللٍ، هو بالدرجة الأولى معرفيٌ ومنهجيٌ في آن.

(٦) الضبابية في الحكم:

إن أسوأ ما يمكن أن يصيب الحكم العلمي في مقتل؛ أن تجتمع فيه نواقض الموضوعية والذاتية بشكل لا يخفى حتى على غير المتخصص، وساعتها فإن هذا الحكم سينطوي على خلل منهجي معرفي نفسي في الوقت ذاته، ولا يحدث هذا الأمر إلا مع باحثٍ قد تخلّى عن تفعيل قدراته في الفهم والتحليل والاستنتاج، وفَقَدَ دقته في النقد والتقييم، وهذا بالضبط ما عبّر عنه كانط في توصيف العقل النقدي حيث تكون أشق مهمة يمكن أن يضطلع بها هي "فحص ذاته، وامتحان قواه الخاصة، والحكم على قدراته الذاتية"[٧٤]، لهذا يجب ألا ننتظر من مثل هذا الباحث نتائج علمية يُعتد بها، وهو لا يستطيع فحص ذاته وقواه الخاصة، ولا يستطيع تقييم

قدراته كما ينبغي، مما يوصله إلى حالٍ من الضبابية في الفهم، من ذلك ما اعتقده **جورج بوش**:

- أن أسرة محمد كانت صاحبة الزعامة والسلطة في مكة، وموت والده ويتمه حالا بينه وبين تلك الزعامة، لذلك كان عليه أن يختلق الأسباب ليتمكن من خلال ثروته وتأثيره اللذين نالهما بعد زواجه من خديجة ليظل في مراتب الشرفاء، ويصل للزعامة التي فقدها.

ويرى أن محمدًا:

- كان كثير السفر والترحال في بلاده والبلاد الأجنبية، وقد كان من شأن هذه الأسفار، بطبيعة الحال، أن تطلعه على مبادئ مختلف الطوائف في العالم الديني، لاسيما اليهود والمسيحيين.

وأنه:

- كان مراقبًا حكيمًا لأحوال الرجال، وما كانت عينه الفاحصة لتفشل في إدراك الشتات الذي يعتري الأديان الموجودة. (٧٥)

وقد تجلت الضبابية في أحكام هذا الباحث، في:

- ما افترضه؛ توهمًا
- وما استنتجه؛ ابتسارًا

وتجلت في رفضه المطلق لحقائق تاريخية يقينية، هي:

- تعدد الزعامات في قريش وتنوعها

- رفض النبي محمد الزعامة حين عُرضت عليه مقابل التخلي عن دعوته
- محدودية الرحلات التي قام بها النبي قبل بدء بعثته بالرسالة

وتجلت في غياب قدرة الباحث - وهذه نقيصة كبرى - على:

- التفرقة بين الدين ومعتنقي هذا الدين

وتجلت في ترويجه لفكرة، لم يقدم على صدقها دليلًا واحدًا، أن:

- محمداً استقى دينه من اليهود والنصارى

وتجلت في إصراره على ما استنتج وجدانه - بغضًا لا تحليلًا علميًا - في:

- أن محمدًا نهّازٌ للفرص، تدفعه نوازع التملك وشهوة السلطة.

وتجلت في إنكاره لما اجتمع عليه العقلاء في كل عصر:

- أن محمدًا ما تخلى في جميع أفعاله عن خُلُق الكرام الذي أقرته الشرائع المنزلة والفلسفات الأصيلة والفِطر السوية.

فالملاحظ أن القاسم المشترك في ضبابية الحكم؛ هو فقدان العنصر الأول والأهم والضابط الجوهري الحاكم لإجراءات البحث، وهو الصدق، حيث إن التزام الصدق وطلب الحق أمرٌ نفسي خلقي يقوم على التربية، فإنه " ليس أمرًا فكريًا منهجيًا فحسب" (٧٦)، إذ أحيانًا

نواجه صنفًا من الباحثين الذين يمتدحون الموضوعية والنزاهة بشدة، دون أن نرى في بحوثهم أثرًا حقيقيًا لما يمتدحون.

مثل هؤلاء يدّعون تمسكهم وحرصهم على المنهجية في أدائهم البحثي، وهم بعيدون عنه، تكاد تجتمع في إجراءاتهم أصنافُ المغالطات كلها؛ المنطقية، التاريخية، والمنهجية، فضلًا عما يصيبهم من متلازمة الخلل البحثي التي ورد بيانها في محددات الخلل، من أمثلة ذلك ما أقرّه **رينان** في محاضرته التي ألقاها بالسوربون في 29 مارس 1883 بأسلوبه الذي يتصف بالنفوذ والشاعرية والتأثير، أمام حشد من الحضور، حيث قال:

- أريد الحديث عن المحتوى الملتبس في الكلمات الآتية:

العلم العربي، الفلسفة العربية، الفن العربي، العلم الإسلامي، الحضارة الإسلامية.

واعتبر هذه الكلمات:

- أفكارًا غامضةً؛ يُستنتج منها في هذه الحالة كثيرٌ من الأحكام الخاطئة، بل وأخطاء علمية خطيرة في بعض الأحيان.

ثم انتقل بعدها إلى القول:

- إن أي شخص قليل العلم بأمور عصرنا، سيرى بوضوح التدني الحالي للبلدان الإسلامية، وتراجع الدول التي يحكمها الإسلام والعجز الفكري للأجناس التي تتمسك فقط بهذا الدين.

وفي الصفحة التالية لذلك أكمل - دون أي ربط منطقي مع ما سبق - قوله:

- لدى المسلم احتقارٌ شديد العمق للمعارف، والعلم، ولكل ما يشكل العقل الأوروبي.

وقدّم تفسيره لوجود هذا الاحتقار، في:

- الأثر الذي رسخته العقيدة الإسلامية والذي هو شديد القوة. (٧٧)

<u>فاكتملت في أحكامه: أركانُ الضبابية كلها، لأنه:</u>

- ما وضع اعتبارًا للترابط المنطقي بين الأسباب والنتيجة، ولا لأسس وقواعد ونُظم اللغة في اصطلاح العرب.
- وتجاوز أصول التحليل المنطقي لعبارات اللغة، باعتباره "**الكلمات**" أفكارًا غامضة، ولم يقدم ما يؤكد العلاقات القائمة بين الكلمات، وما مسوغاته في اعتبارها غامضة.
- وخلط خلطًا آثمًا بين الإسلام والمسلمين، ولم يُرد أن يستوعب تمايزهما، كما خلط بين العلم والفلسفة والفن والحضارة، ليس لشيء إلا لارتباط كل مفهوم منها بالعرب أو بالإسلام.
- وانتقل بحكم جزئي - ربما كان صحيحًا لدى أفراد من المسلمين - وهو الاحتقار الشديد للمعارف والعلم ولكل ما يشكل العقل الأوروبي؛ وأراد قسريًا تعميم هذا الحكم على جميع أفراد المسلمين،

مما أوقعه في نطاق التعميمات الساذجة، وأبعده عن أصول الاستقراء العلمي الصحيح.

- وأراد أن يوهم سامعيه؛ أن ما رسَّخ هذا الأثر بين المسلمين هو "العقيدة الإسلامية"، من غير أن يؤكد المقومات التاريخية والعلمية والمنطقية التي استند إليها في هذا الحكم.
- وتطرّف في اختلاق أحكامه معتمدًا على إثارة الحماسة بين سامعيه، فأهدر الضوابط الذاتية الواجبة لضمان صحة الأحكام، واشتط متجاوزًا مقتضيات النزاهة والحيادية، فعبّر عن ذاتية متطرفة، لا سويّة فيها.
- وأبان تحامله الشديد على الإسلام والمسلمين عن خللٍ منهجيٍ ونفسيٍ؛ تمثل في تأثره بأفكاره المسبقة وما نشأ عليه، من غير أن يعزز موقفه بدليل من العلم.

وفي نموذج آخر للضبابية في الحكم؛ سنجد صورة مغايرة للتخبط والاضطراب وتلفيق الافتراضات، حتى أننا لن نعثر على سياقٍ واحدٍ مكتوب، يتصف بالانسجام والترابط، بل سنواجه كمًا هائلًا من التضارب والتناقض، وسيعجز تركيزنا عن أن يقبض على أية فكرة؛ محورية أو فرعية، يمكن الوقوف عندها أو مناقشتها، وسنصطدم

في كل جزء من النص بأحكامٍ متهالكةٍ وأدلةٍ باهتة، لا تراعي حقائق التاريخ ولا أصول المنطق ولا ضوابط البحث الموضوعية والذاتية.

هو نموذجٌ فيه إصرارٌ على مشروعٍ محدد، ولكي تُنْفِذ مشروعها؛ اعتمدت المستشرقة **باتريشيا كرون** تلفيق بعض الأحكام التي "افترضتها" هي، وتفرغت في عملها البحثي الممتد لسنواتٍ، للترويج لما افترضت، ضاربةً عرض الحائط بأصول البحث، متجاوزةً منهجية العلم، سائرةً بمنطق "وضع العربة أمام الحصان"، متغافلةً - مع سبق الإصرار- عن وثائق التاريخ التي أجمع المؤرخون من كافة الأجناس والعصور على صحتها، **وقد طال ما افترضته: الإسلام، مكة، القرآن الكريم، والنبي الكريم محمد ﷺ، إذ تقول فيه:**

- كان محمد رسولًا له مهمة سياسية، وليس كما ادعى أنه رسول قُدر له أن ينخرط في السياسة، إن التوحيد الذي دعا إليه أصبح له برنامج سياسي.

ولتضفي على ما ادّعته، مشروعيةً تاريخية ودينية، تقول:

- إن هذا الأمر يبدو واضحًا ليس من المصادر غير الإسلامية فقط ولكن مما ذكره ابن إسحاق، حيث أخبرنا أن نقطة التحول الكبرى في حياة محمد جاءت عندما قام بمهاجمة آلهة أسلافه من قريش وشهّر بهم. (٧٨)

وتتصدّى لتفسير ذلك بأن محمدًا بمهاجمته آلهة قريش، قد هاجم أهم أسس وجود القبيلة، وليس بسبب الزعم بأن دعوته للتوحيد كانت تهدد مكانة كعبة مكة أو تجارتها، دون أن تقدم نص ابن إسحاق الصريح الذي يتضمن ادعاءها، ودون أن تدلنا إلى العلاقة بين ما قال ابن إسحاق وما تدّعيه، إضافة إلى أن ما نسبته لابن إسحاق كان اقتباسًا من مصدرٍ ليس لها أصلًا، فضلًا عن ذلك كله؛ فإن ما نُسب لابن إسحاق ليس فيه أي دلالة على أن دعوة محمد هي برنامجٌ سياسيٌ.

وقد تولت الباحثة آمال الروبي - التي اضطلعت بمهمة ترجمة كتاب باتريشيا - عملية تفنيد افتراضات هذه المستشرقة بمنهجٍ علمي يستند إلى تخصص ومنطق وتوثيق تاريخي، تخبرنا في مقدمة عملها أن "أسهل طريقة لتمرير أي قضية غير منطقية ليبتلعها القارئ أن تبدأ بافتراض شكل منطقي له ومقنع من الخارج، وجوهره في الحقيقة باطل" (٧٩)، مما يدلنا على نوع جديد من المغالطات في الحكم، لا نجد له نظيرًا في البحث إلا عندما يتعلق الأمر بالإسلام ونبي الإسلام، وهنا تتجلي حقيقة **الخلل النفسي** في مثل هذه الضبابية، فوق ما يعتمل فيه من **الخلل المنهجي والمعرفي**، كما يدلنا على أن مواجهة مثل هذه الضبابية تكون بضرورة التئام خطابنا الديني لأنفسنا مع خطابنا الديني للآخر، فعلينا "حين نناقش من لا

يؤمن بالجانب الديني، أن نناقشه بمنطقه، لا بمسلماتنا وعقائدنا"[٨٠]، هذا هو السبيل الذي ربما يحفظ ديننا ونبينا وقيمنا من انفلات البحث - باسم العلم - من أية روح علمية.

<u>**أما النموذج الأخير**</u>: الذي سنعرض له في الدلالة على الضبابية، فسوف نواجه فيه مثالًا له تفردٌ في الجرأة على العلم والبحث والتاريخ والمنهج، ربما يدل هذا النموذج على صورةٍ محددةٍ بعينها للضبابية، ويرتبط باسمٍ محددٍ من الباحثين، لكنه - **وهذا هو المهم** - يشير إلى حالاتٍ أخرى شبيهة وتتزايد، وتظهر من وقت لآخر، تصدر عن باحثين عرب ومسلمين، فلا تتوقف حيل أصحابها عن الطعن في الإسلام والنبوة والسنة والسيرة باسم التطور والحداثة والتنوير، ربما يستطيعون أن ينفذوا إلى عقول البعض من العامة ومحدودي الوعي ومن في قلوبهم مرض، لديهم إصرارٌ على المضي قُدماً لإنفاذ غاياتهم، لا تنتهي حججهم، ولا تتوقف أدلتهم الباطلة، يجدون من يدعمهم ويمهد لرواج مآربهم بين الناس، لا يعدمون الذكاء والبراعة في المغالطة، يُصَدِّرون أحكامهم بفكرة صحيحة - **هي فكرة جزئية ومحدودة** - ليسوّقوا أحكامًا كليةً باطلةً، عبر استقراءات احتمالية واهية ليس لها من الضبط العلمي ما يدعمها، وذلك لخلخة الثقة بالدين، وتقديم الإسلام ونبيه ورسالته وحضارته كما يُحبُّ المناهضون للدين والقيم والإنسانية.

<u>يقول صاحب هذا النموذج:</u>

- هناك ظاهرة "**التوظيف الانتقائي**" للحديث النبوي كسلاح يحسم النزاعات من خلال إثبات مزاعم أحد الطرفين وإسباغ غطاء الشرعية عليها، بحيث إذا عارضها الطرف الآخر كان كمن يعارض السنة النبوية. (٨١)

دون أن يتساءل:

- هل العيبُ في السنة، أم فيمن يوظف منهجه الانتقائي للانتصار لرأي معين: ديني أو سياسي؟

- فضلًا عن أن هذا التوظيف ليس مقصورًا على الحديث وحده، بل طال هذا الأمر، الآيات القرآنية ومذاهب المفكرين المسلمين ومناهجهم، ولازال مستمرًا إلى اليوم.

فالمشكلة إذن: ليست في الآيات ولا في الأحاديث، وإنما في التوظيف، وفي المنهج، وفي **<u>الذاتية</u>** التي يريد صاحبها أن يوهمنا بأن ما يفهمه – هو وحده – هو الصحيح.

يواصل هذا الباحث أحكامه، فيقول:

- إن الأحاديث من نتاج عقول الرجال، وتابعة لأهوائهم وأغراضهم وحرصهم كل الحرص على التدليل على أنها وحي، لخدمة مطامعهم الشخصية ومصالحهم السياسية. (٨٢)

<u>**وكانت منهجية التحليل العلمي تقتضي منه أن يحدد:**</u>

- أي الأحاديث بالضبط، هي نتاج عقول الرجال، وأي الرجال؟
- وهل هذا الناتج يمس متون الأحاديث، أم أسانيدها؟
- وهل كان ذلك بين كُتّاب الحديث وكتّاب السيرة منذ الجيل الأول من الرواة؟

أسئلة عديدة كان على الباحث أن يطرحها كفرضيات موجهة لبحثة، ولم يفعل، خشية أن يتكلف عناء الرجوع إلى منهج تحليلي دقيق، ربما لو استخدمه لسقطت معه كافة طعونه في السنة وكتّابها، وفي السيرة وكتّابها.

وليوهمنا أنه باحثٌ يعتمد منهجًا علميًا، ينتقي - <u>**ولنتوقف جيدًا عند هذا الانتقاء**</u>- كتابًا متأخرًا في السيرة، يقول فيه:

- إن "**السيرة الحلبية**" استندت في ذكر معجزات الرسول المادية إلى كل التراكمات السابقة لترقى بعملية الأسطرة للسيرة النبوية إلى مستوى غير مسبوق. (٨٣)

ويستدل - في اعتقاده - على هذا التراكم، بأن ابن هشام في سيرته لم يذكر إلا عشر معجزات، تضاعفت على يد الماوردي، ثم البيهقي، ثم القاضي عياض، الذي جعلها مائة وعشرين في "الشفاء"، ثم وصلت

إلى مرحلة خطيرة في القرن الحادي عشر الهجري في "**السيرة الحلبية**".

وقد فات هذا الباحث أن يوضح:

- لماذا تجاوز أجيالَ كُتّاب السيرة من جيلها الأول فالذي يليه، ليتوقف عند "**السيرة الحلبية**" تحديدًا، ولماذا توقف عند مسألة "**المعجزات المادية**"، ولماذا تجاوز "**معجزة القرآن**" وما فيها من دلائل باهرة على كل مستويات الإعجاز، ولماذا تجاوز "**معجزة النبوة**"؟

ألا تدل هذه الأسئلة على أن هذا الباحث قد وقع في "الخلل المنهجي" الذي يعيبه على الآخرين، وهو التوظيف الانتقائي؟!

إنه لا يفرِّق بين السيرة والسنة، ويخلط كثيرًا بين العلمين، ويطعن - دون أن يصرح بذلك – في صاحب السيرة والسنة، النبي الكريم محمد، ويتنقّل هذا الباحث بين أحكامه، ومنها ما أطلق عليه "**الأحاديث الغيبية**"، ويرى أنها في نظره مرفوضةٌ؛ لمخالفتها القرآن الكريم والمعارف الإبستمولوجية التي بين أيدينا، ولو يكن القصد منها أكثر من التفاخر بين الرواة في أيهم أكثر غزارةٍ في الحفظ، ويعتقد أن هناك نوعًا آخر من الأحاديث، أخطر من الأحاديث الغيبية، هو:

- ما يحمل في طياته الدسائس السياسية التي هيمنت على المنظومة المعرفية التراثية وطغت عليها، ولم تسمح لها بأن ترفع رأسًا، وهو ما يتعلق بالغيبيات السياسية. (٨٤)

ويواصل تسلسل أحكامه - ولنا أن نلمح جيدًا، كيف يتسرب **التفسير المادي** في تحليلاته للأحاديث - حيث يرى أن هذه الغيبيات قد أدت إلى ضياع المشروع الحضاري للأمة الإسلامية، **لأن ذلك**:

- حولها إلى أمة على هامش التاريخ بسبب الانقطاع المعرفي الذي أحدثته صناعةُ الحديث، والتشبث به كوحي حاكم عليه، وتقديس حقبة تاريخية زمنية معينة بأسطرتها وجعلها المثال الذي يجب أن تنشأ أو تسير عليه كل المجتمعات، ما دفع الأمة إلى هاوية التخلف والدوران حول الذات، وعدم القدرة على التفاهم مع الآخر حضاريًا ومعرفيًا ودينيًا وحتى تاريخيًا. (٨٥).

هذا الباحث يعمد إلى إغراقنا في جملة من الأحكام المتوالية وهو يوهمنا في كل سطر فيها؛ أنه العارفُ بأسرار الدين، والكاشف لمكوناته عنصرًا عنصرًا، والفاهم لنتاجات المسلمين وحضارتهم، وما يدور في عقولهم وخبايا ضمائرهم، والمحدد لداءاتهم، والقادرُ الذي بيده وحده علاجاتها، والمفسرُ الأوحد لآيات الوحي جميعًا، والمنزَّه عن الخطأ والسهو والنسيان.

هذا التوصيف يؤصِّل تجذروتسلط "الضبابية" في فهمه وتحليله ونتائجه وأحكامه، لأنه:

- يمارس "**التوظيف الانتقائي**" لمصادر معلوماته، إذ يقبل منها ويهمل دون اعتبارٍ تاريخي أو علمي، إنما لاعتبار وحيد؛ هو ما يؤكد ويوافق مذهبه فقط.
- يعمد إلى **خطاب وعظي إنشائي** مضادٍ للعلم واللغة وأصولها، ويتغافل عن مقتضيات المنهج البحثي، ويركز على إثارة وجدان القارئ، بما ليس له أي علاقة بإجراءات وضوابط التحقق في العلم.
- يستغل ذكاءه في اصطياد فكرة أو حدث معين، هو صحيحٌ، لينطلق منه في بناء تعميمٍ كلي ساذج، وهو يقنعنا في كل كلمة يكتبها أنه تعميمٌ علمي مبني على "استقراء تام" لجميع حالاته.
- يُتقن مهارةً متميزة في صياغة أحكام كلية تطال "الحديث" و"السنة" و"تاريخ الإسلام" و"حضارة الإسلام"، ويوصّف مشكلات المسلمين الراهنة بـ"التخلف" و"الدوران حول الذات" و"عدم القدرة على التفاهم مع الآخر".
- يبتدع - من غير تأصيل تاريخي أو علمي - مفاهيمَ غريبة، ليس لها سابقة في تاريخ الفكر الإسلامي، من مثل: "صناعة الحديث" و"الأحاديث الغيبية" و"الأحاديث السياسية" و"المنظومة المعرفية التراثية"، دون أن يحدد دلالة كل مفهوم بشكلٍ علمي دقيق يقبل التحقق منه.

• يخلط خلطًا معيبًا في كثير من أحكامه بين "السنة والسيرة" و"الحاضر والتراث" و"كتب السيرة وكتب السنة" و "كتّاب السيرة وكتّاب السنة»"، مما يوقع القارئ في التخبط.

• يعطى لنفسه الحق، ليس في الحكم على الماضي وكتب السنة والسيرة وكُتّاب كل منهما وحسب، بل يذهب لأبعد من هذا، حيث يحكم على نوايا الكُتّاب والحَفَظَة، ويطعن فيها، فيزعم أن هؤلاء - وهذا تعميم ساذج - في تدوينهم للحديث والسيرة ما كان مقصدهم - وهذا تعميم ساذج آخر - أكثر من التفاخر أيهم أكثر حفظًا.

• يخلط في عمله البحثي فلا يفرق بين الضوابط الذاتية والموضوعية، حتى أصابت أحكامه وتحليلاته محددات الخلل جميعًا، من التعسف في الحكم، إنكار الحقائق، عدم التمييز بين الحقائق، الاستنتاج القسري، والقصور في الرؤية، فأدى به إلى أن تكون أحكامه نموذجًا متكاملًا للضبابية في الحكم.

• يناور في تسريب أحكامه إلى العقل، فلا يصرح بنواياه ومنطلقاته، لكي تنطلي حجته على القارئ من أنه يمثل العلم المعاصر والفهم المتطور، بينما تفحص أحكامه وتحليلها يفصح عما وراءها من أثر التفسير المادي، وأثر ما يعتقد من أفكارٍ شيعيةٍ مستهجنة، وأثرٍ علماني، وقد صنع مثل هذا النموذج في تاريخنا الفكري المعاصر كثيراً

من الإشكاليات البحثية، إما بتلقي نماذج غربية لها بيئاتها التي نشأت فيها ثم الإيمان بها واعتبارها جزءًا من خطابنا ومناهجنا، وإما بتلقي نماذج أيدولوجية تدّعي الإسلامية في خطابها وشعاراتها ورموزها، حيث تتجرأ على النص القرآني والنص النبوي وعلى كُتّاب السنة والسيرة، يقتطعون من النصوص والأحداث والرموز؛ فقط ما يؤكد مذاهبهم ويبرر مقاصدهم.

هذه النماذج تنبئنا عن حقيقة ربما غابت عن بعض المسلمين، أن العلم والعلماء، في الغرب، قد أُضطهدا وحوصرا مرتين باسم الدين، وفي المرتين تدمّرت كثيرٌ من الأسس الأخلاقية التي ينبغي أن تقوم عليها منهجية البحث وصحة الأحكام:

- **الأولى** كانت لمصلحة رجال الكنيسة
- **والثانية** لمصلحة العلمانية والعلمانيين

وأسفرت النتيجة في المرتين عن خسارة العلم في أوروبا لصدقيّة أحكامه التي صدرت – باطلًا - بحق الإسلام وكِتابِه ونبيه وحضارته ومفكريه، الكارثةُ أن بعض من يدّعون الإسلام واحتكروا حق الخطاب باسم الدين؛ يجروننا الآن جرًا، لنمضي في الطريق الذي سلكته أوروبا منذ القرن الخامس الميلادي، **ولم يضف لها إلا اغتراباً عن صحيح الدين**.

هوامش القسم الثاني:

---

(1) أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 2008، المجلد الأول، ص 802

(2) صلاح قنصوه: الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص 65

(3) فريد الأنصاري: أبجديات البحث في العلوم الشرعية، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، ط 1997، ص 41

(4) علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1984، ص 347

(5) عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، نسخة إلكترونية، ص 366

(6) سيد البحراوي: البحث عن المنهج، دار شرقيات، القاهرة، ط 1، 1993، ص 10

(7) النسائي: السنن الكبرى، تحقيق: محمد ناصر الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، جـ 1، باب الطهارة، حديث رقم 61، ص 95

(8) محمد عابد الجابري: من موضوع «التراث ومشكلة المنهج» المنشور ضمن كتاب «المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية»، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 3، ص 84:85

(9) رجاء دويدري: البحث العلمي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 1، 2000، ص 32

(10) سهيل زكار: من مقدمة تحقيق كتاب «المغازي النبوية للزهري»، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1981، ص 31

(11) محمد سعيد البوطي، فقه السيرة النبوية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 15، 1991، ص 26

(12) سهيل زكار: من مقدمة تحقيق كتاب «سيرة ابن اسحاق»، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1981، ص 31

(13) George Buch: The Life of Mohammed, J. Harper, 82 Cliff. ST., New York, 1982, P. 4

(14) محمد شحرور: السنة الرسولية والسنة النبوية، دار الساقي، بيروت، ط 1، 2012، ص 25

(15) محمد العيد الخطراوي ومحب الدين متو: من مقدمة تحقيق كتاب «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط 3، 1403 هـ، ص 26

(16) محمد الغزالي: فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط 6، 1965، ص 4

(17) محمد عابد الجابري: الدين والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 1996، ص 11

(18) رشدي فكار: لمحات عن منهجية الحوار والتحدي الإعجازي للإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1982، ص 1

(19) Emile Dermengham: The Life of Mohamed P. viii

(20) القسطلاني: لطائف الإشارات، تحقيق: عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، جـ 1، ص 173

(21) السمعاني: أدب الإملاء، تحقيق: على زيعور، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط 1، 1993، ص 78

(22) عبد الفتاح خضر: أزمة البحث العلمي، نسخة مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ط 3، 1992، ص 26

(23) Reynold A. Nicholson: A Literary History of the Arabs, P. 143

(24) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة: حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 1، 1983، ص 21

(25) عبد الرحمن بدوي: دفاع عن محمد، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، ص 24

(26) محمد عثمان بخاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ط 7، 2001، ص 150

(27) ألبرت ماكومب ونشستر: موضوع «العلوم تدعم إيماني» المنشور ضمن كتاب «الله يتجلى في عصر العلم»، ترجمة: الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: محمد جمال الدين الفندي، دار القلم، بيروت، ص 118

(28) محمود شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 33

(29) بودلي: الرسول، ص 97

And K. S. Rama Krishnna: Muhammad Prophet of Islam, P. 7

(30) Nicholson: A Literary History of the Arabs, P. 146

(31) حسين مؤنس: تاريخ موجز للفكر العربي، دار الرشاد، القاهرة، ط 1، 1996، ص 105

(32) كارين أرمسترونج: محمد نبي ومانيا، ص 22

(33) حاكم المطيري: عروة بن الزبير وكتاب المغازي، دراسة محكمة في مجلة «كلية الدراسات الإسلامية والعربية»، جامعة الأزهر، الإسكندرية، العدد 26، ص 3

(34) عبد الرحمن التميمي: كتاب الجرح والتعديل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1953، جـ 1، ص 5

(35) الحاكم النيسابوري: كتاب معرفة علوم الحديث، تحقيق، السيد معظم حسين، منشورات المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط 2، 1977، ص 6

(36) أسد رستم: مصطلح التاريخ، مركز تراث البحوث والدراسات، القاهرة، ط 1، 2015، ص 53

(37) كارين أرمسترونج: محمد نبي زماننا، ص 22

(38) أكرم ضياء العمري: منهج النقد عند المحدثين، دار أشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1997، ص 33

(39) المرجع نفسه، ص 22

(40) زكريا إبراهيم: الفلسفة النقدية: مكتبة مصر: القاهرة، ط 2، 1972، ص 230

(41) حسين صبري: روّاد الشك المنهجي، دار الضياء، أبو ظبي، ط 1، 2011، ص 59

(42) محمود شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 64

(43) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط 1، 2004، جـ 1، ص 261

(44) نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، ص 25

(45) عبد الستار إبراهيم: الإنسان وعلم النفس، من سلسلة «عالم المعرفة» إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد رقم 86، فبراير 1978، ص 211

(46) Joseph Neisser: The Science of Subjectivity, Palgrave Macmillan, UK, 2015, P.14

(47) أحمد أمين: النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 4، 1967، ص 9

(48) زيجرد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص 9

(49) مونتجمري وات: فضل الإسلام، ص 112

(50) رجاء دويدري: البحث العلمي، ص 24

(51) Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam, G.P. Putnam's Sons, New York, 1905, P.72

(52) Reynold A. Necholson: A literary of the Arabs, P. 148

(53) جاك ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون، مراجعة: أحمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص 26

(54) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص 108:109

(55) عبد الستار ابراهيم: أسس علم النفس، دار المريخ للنشر، الرياض، ط 1987، ص 32

(56) ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ 13، ص 13

(57) George Buch: The Life of Mohammed, P. 156

(58) A. J. Wensinck: The Muslim Creed, Barnes & Noble, Inc., New York, Second Edition, 1965, P.17

(59) بودلي: حياة محمد، ص 88

(60) Oliver Leaman: An Introduction to Classical Islamic Philosophy, Cambridge University Press, UK, 2004, P. 41

(61) نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2014، ص 19

(62) Theodor Noldeke: Sketches from Eastern History, Translated by: John Sutherland Balck, Adam And Charles Black, London, 1892, P.65

(63) Theodor Noldeke: Sketches from Eastern History, P. 62

(64) عبد الله العروي: موضوع «المنهجية بين الأبداع والأتباع» المنشور ضمن كتاب «المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية»، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 3، 2001، ص 13

(65) George Bush: The life of Mohammed, P. 158

(66) شوقي ضيف وآخرون: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 4، 2004، ص 899

(67) عبد القاهر الجرجاني: معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ص 22

(68) Washington Irving: Lives of Mohamet, Baudry's European Library, Paris, 1850, P. 21

(69) Reynold A. Necholson: A Literary History of The Arabs, P. 179

(70) Annie Besant: The Life And Teaching of Muhammad, Theosophical Publishing House, Adyar, India, 1932, P. 1

(71) ألفونس دي لامارتين: مختارات من كتاب «حياة محمد»، ترجمة: محمد قوبعة، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط 1، 2006، ص 95

(72) Maxime Rodinson: Muhammad, Tauris Parke Paperbacks, London, 2002, P. 293

(73) Margoliouth: The Early Development of Mohammedanism, Charles Scribner's Sons, New yourk, 1914, P. 38

(74) زكريا إبراهيم: الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، القاهرة، ط 2، 1972، ص 231:232

(75) George Buch: The Life of Mohammed, P. 48

(76) محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1429 هـ، ص 93

(77) رينان والأفغاني: الإسلام والعلم «مناظرة رينان والأفغاني»، ترجمة ودراسة: مجدي عبد الحافظ، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 2005، ص 34:35

(78) باتريشيا كرون: تجارة مكة وظهور الإسلام، ترجمة: آمال محمد الروبي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 2005، ص 403

(79) آمال محمد الروبي: الرد على كتاب باتريشيا كرون، نسخة إليكترونية، ص 3:4

(80) عبد الرحمن الشرقاوي: محمد رسول الحرية، ص 11

(81) محمد شحرور، السنة الرسولية والسنة النبوية، ص 15

(82) المرجع نفسه، ص 30

(83) المرجع نفسه، ص 40

(84) المرجع نفسه، ص 78

(85) المرجع نفسه، ص 87

خاتمة الدراسة

النتائج والتوصيات

توصلت دراستنا في "إنسانية" محمد ﷺ إلى مجموعة من النتائج، هي **قواعد** يمكن اعتبارها مناظِرةً للنتائج التي يستخلصها الباحثون عند دراسة الظواهر في العلم الطبيعي، فلا تقلُّ عنها درجة أو ضرورة أو أثرًا، هذه القواعد تحمل جملة من **التوصيات؛ هي** التي تجعل لهذه القواعد قيمة عملية، وتمدّنا بمقترحات من الأفكار، يمكن أن نستنبط منها **فرضيات** ينبني عليها عملٌ بحثي جديد، وأبرزها:

قاعدة "التلازم":

إن جوهر إنسانية محمد: يكمن في "التلازم" الذي يجمع بين "الاتساق" بين صفات بشريته وصفات نبوته، و"التمايز" لكل صفة أو خُلُق أو قدرة اتصف بها، إلى حد الانسجام التام بين الاتساق والتمايز في وحدة إنسانية مُعبرة عن أكمل خَلق الله ﷺ، هذا التلازم هو سُنّة كونية تحكم وجود الكائنات في الأرض وأصناف الناس، وألوان المشاعر، ومجموعات العمل، والدرس المستفاد أن سُنَّة "**التنوع**" هي من إرادات الله في الكون، لا ينبغي المساس بها هدمًا أو تخريبًا أو تحقيرًا أو استهانة، وقد حرص النبي محمد على إنفاذ سنة التنوع في شتى مناحي الحياة في المجتمع الإسلامي، ومن وصاياه: تقدير قيمة التنوع، لأنه هو الموصل إلى التكامل.

قاعدة "المفاضلة":

إن الذي يؤسس لتقييم الأداء الإنساني؛ هو الإقرار باختلاف الناس في طاقاتهم ومُقدّراتهم وأرزاقهم ومواهبهم ومجهوداتهم، والدرس المستفاد أن الملاحظة المباشرة وإن دلّت على التفاوت بين الناس، لكنهم متساوون في الإنسانية والكرامة والخلقة والمواهب والحظوظ وإن اختلفوا في نسبة ما أُعطوا من كل عنصر منها، الدرس المستفاد أن ما يُمكّن الإنسان من حيازة "الأفضلية" هو جهده، وما يُخلص من نوايا، وما يأخذ من أسباب الكسب والتدريب والتطوير وإعمال العقل، وبسط المعروف في الناس.

وإن استقراء الشواهد على أفضلية محمد عليه السلام؛ استندت إلى معايير مقننة هي "حيثيات"، ودراستنا حين عمدت إلى تحليل هذه الشواهد، لم يكن إلا لغرضٍ بحثي بحت، فإن الشواهد ومعاييرها لا تضيف للنبي الكريم محمد، ولا توجد له حقًا ما كان ليأتيه لولاها، إنما هي من باب زيادة الواضح وضوحًا لإشباع العقل البحثي، فإن من مقتضيات "الأفضلية" بين الناس، ألا يكون انتزاعها عنوة، وإنما بحقها من الخُلق الإنساني والجَهد والأثر.

ضبط المفاهيم:

إن من ضرورات العلم: **ضبط المفاهيم** المستخدمة كمقدمة أولى في أي إجراء بحثي، وقد كان سقراط يشترط ذلك الضبط قبل الشروع في أي بناء فكري مع طلابه أو مع خصومه، والدرس المستفاد أن نؤسس بشكل منهجي للمفاهيم التي يؤدي الخلاف بشأنها إلى تضييع جهدنا في الحوار والتواصل، من مثل: اعتبار سب النبي محمد دلالة على التحرر، واعتبار الشذوذ والانحراف والانتحار دلالة على الحق الوجودي للإنسان، واعتبار الإيمان تخلفًا وضعفًا دلالة على الحداثة والتنوير، لذلك توصي الدراسة بإعادة تحديد مفهوم "**التطرف**" الذي لازال يداور في دلالات بعينها، قَصَرَها البعض على هذه الدلالات دون غيرها – عمدًا – للإساءة إلى الإسلام، وتوصي بضرورة **فك الربط التعسفي** بين الذاتية وغياب المنهجية، لأن للذاتية صورتان؛ السوية والمتطرفة ويتصلان بالباحث، وللموضوعية صورتان: كفاية الحقائق والأدلة وعدم كفايتهما ويتصلان بموضوع البحث، وأي منهما – الذاتية والموضوعية - يمكن أن يقود أحكام الباحث إلى الصحة أو إلى البطلان، وليس وجود الحكم العلمي الباطل راجعًا إلى الذاتية وحسب، فقد يعود إلى الموضوعية في عدم كفاية الحقائق والأدلة.

صناعة الإشكالية:

إن بعضًا من مفكري الإسلام قد جلبوا من الغرب نماذج من الفكر والفلسفة والعلم وتقنيات العلوم، وأسسوا لها في مجتمعاتنا الإسلامية، على أنها قاطرتنا إلى التطوير، ولما رحنا نتعامل معها ونوظفها بقيمها التي بُنيت عليها؛ أفرز في واقعنا الإسلامي؛ عديدًا من الإشكاليات، كالصراع بين الأجيال، وشيوع النمط الاستهلاكي، والعلمانية، والوجودية، والتفسيرات المادية، ولما زادت حدة هذه الإشكاليات ونغّصت علينا، رحنا نسعي سعيًا حثيثًا نفتش لها عن حلول إسلامية، مع أن أساسها وحقيقتها بعيدٌ عن هويتنا وأخلاقنا ومقاصد ديننا الحنيف، الدرس المستفاد في بحوثنا العلمية ومناهجنا التعليمية وخطابنا الديني والإعلامي؛ هو بناء عقلية لديها الثقة بما لديها من تاريخ وتراث ودين وقيم، وقدرة على التميز الحضاري.

محدد "الخطر":

إن تفحص واقعنا الفكري والديني – كما بينت تفاصيل دراستنا – عبر القرون الثلاثة الأخيرة؛ يوضح أن مكامن الخطر على نبي الإسلام ورسالته وأمة المسلمين؛ **لا يخرج عن مسارات ثلاثة:**

أولها: المغالاة في **التشيع**، وتبني أفكار شيعية متطرفة، والدفاع عنها واعتبارها من صحيح الإسلام.

والثاني: **التفسير المادي**؛ الذي نفذ إلى عقولنا تحت دعاوى الاشتراكية والمساواة والعدالة والكرامة الإنسانية.

والأخير: **إنكار الدين و إنكار النبوات**، وربط وجود التدين المتزن بالتخلف والضعف والانحطاط.

مع ملاحظة؛ أن **التوظيف السياسي** الذي امتهنته فئةٌ إسلامية، قبل أن ينتصف القرن الماضي وإلى اليوم، قد زادت حدته، والدرس المستفاد هو الانتباه لهذه الفئة التي غايتها إرجاعنا للوراء نفتش في تراثنا عن أسانيد صحة السنة والسيرة، وتقليب صفحات الدم والفتن والصراع والتطاحن المذهبي، والاستغراق في اختلافاتنا في الفروع، حيث إن مُرادها ألا نرى في تراثنا نقاط قوته المضيئة وهي فوق الحصر.

أمانة التعميم:

هناك باحثون كانوا منصفين في كثير من أحكامهم على الإسلام ونبي الإسلام والقرآن وحضارة المسلمين، غير أنه قد جانبهم الصواب في طريقة تناولهم لجانب محدد او جزئية محددة، هذا لا يعطي لدراستنا الحق في بناء تعميم كلي على جملة أعمال هذا الباحث،

فلم يسلم هؤلاء من أثر ثقافاتهم وموروثاتهم وتنشئتهم، لهذا فمن ضرورات البحث العلمي أن يوضع هذا الخلل في حجمه وفي إطاره، لتصحيح الحقائق ولتصويب الخلل، والدرس المستفاد أن كثيرًا من الإشكاليات التي تعوق حوار المسلمين مع الغرب، سببها التعميمات التي لم يتم بناؤها وفق استقراءٍ علميٍ صحيح.

المشروع:

إن الإساءة للدين والرسول والسنة والسيرة وكل رمز إسلامي؛ يعبر عن مشروع واضح محدد ومتفق على إجراءاته وأهدافه وأدواته، والدرس المستفاد أن يؤَسس له **مشروعٌ مضاد**، مبنيٌ على جهد علمي مؤسسي دائب ومتواصل، له آلياته ومراجعاته التي لا تنقطع ولا تتوقف، من إجراءاته تنقيةُ كتب السيرة والسنة بضبطٍ شرعي منهجي علمي ودقيق، هذا ما سيسجل لنا حق "**الإضافة**" بديلًا عن النقد السلبي والإساءة لرموز الحضارة الإسلامية، فإن من صنع هذا التحضر من فكر وأدب وشعر وفقه وكلام وتفسير وسيرة وتصوف وأخلاق وعلم طبيعي وعلم إنساني وتطبيقات ومراصد ومعاجم وقواميس وموسوعات وفهارس ونُظم وقوانين وعمران وفنون، من صنع هذا كله ولقرونٍ ممتدة، سعى واجتهد وأعمل فكره ونقل وترجم

وفحص ودرس وهضم وشرح ونقد وفنّد وصحح وأبدع وأضاف أثرًا وأعلى درجاتٍ في بناء الفكر الإنساني، رغم ضعف هنا أو هناك، لكنه عَمِلَ وأضاف، فإن جوهر هذه الإساءة: يكمن فيمن لا يعمل ولا يضيف، إنما يتبجح ويقدح، حتى انضمَّ في هذا التوجه – على اختلاف أسمائهم ومداخلهم ودوافعهم – عددٌ يتزايد يومًا بعد يوم، ويمثل تيارًا يدّعي تنقية الدين، وفي حقيقته لا يمثل إلا تشويهًا للدين.

متلازمة "الخلل البحثي":

إن صحة النتائج والأحكام في ساحات العلم: يتوقف على الحرص على تمييز محددات بطلانها، بالضبط كالحرص على تمييز محددات صحتها، لأن الخلل في أحكام العلماء، له مصادر ثلاثة، هي:

- **الخلل النفسي**: الذي يعطل الضوابط الذاتية في إجراءات البحث العلمي
- **والخلل المعرفي**: الذي يعطل الضوابط الموضوعية
- **والخلل المنهجي**: الذي يعطل النوعين من الضوابط

والدرس المستفاد: هو الوعي بأن من أصعب وأعقد مصادر الخلل في البحث العلمي: في معرفته والكشف عنه، هو ذاك الخلل النفسي.

الرسالة:

إن الله تعالى لا يترك الناس كافة، ولا المؤمنين خاصة، دون أن يبعث لهم من آن لآخر برسائله، على مستوى الأمم، وعلى مستوى الأفراد، وعلينا أن نلتفت، ونفهم، ونفطن، ونراجع، ونصحح، وننطلق، وننهض، فهذه من مقاصد الدين في الإنسان، الدرس المستفاد ألا نترك "الفراغ" يوسّع لنفسه في عقولنا وأنماط تفكيرنا وسلوكنا، فهناك الكثير من الناس مستعدون في أي لحظة لأن يسدّوا هذا الفراغ بما يريدون هم.

قاعدة "الاستحقاق":

إن ما يقنن الأمور ويصنع الأحكام بين الناس في دوافعهم ومشاعرهم وعلاقاتهم، هو قانون الارتياح أو الارتياب: الذي له مقدماته وأسبابه العقلية والوجدانية والمادية، فكيف وقد علمنا استحقاق نبينا الكريم على كافة معايير "الأفضلية" ونقبل تعطيل هذا القانون في

وجوب تقدير النبي الخاتم ﷺ، وكافة الأنبياء والمرسلين والمصلحين والحكماء؟

فالدرس المستفاد هو "**تأكيد المؤكد**" في أن يكون للنبي محمد ﷺ؛ الرتبة الأعلى - التي هي له بالأساس - في التقدير والاحتفاء والاقتداء، الذي يليق بكرامة وقدر أكمل من خُلق من جنس "الإنسان".

المصادروالمراجع

أولاً: المصادر العربية

١. ابن إسحاق: السيرة النبوية، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2004

٢. ابن إسحاق: كتاب السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1978

٣. ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق: محمد زهدي النجار، المؤسسة السعيدية، الرياض

٤. ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط 1، 2004

٥. ابن سعد: الطبقات الكبير: تحقيق: علي محمد عمر: مكتبة الخانجي: القاهرة، ط 1، 2001

٦. ابن سيد الناس: عيون الأثر، تحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحي الدين متو، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة

٧. ابن عبد البر: الدرر في اختصاص المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 1991

٨. ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله على الكثير وآخرون، دار المعارف، القاهرة

٩. ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت

١٠.أبو الفضيل عياض: الشفا، تحقيق: عبده علي كوشك، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2013

١١.الأصبهاني: أخلاق النبي، تحقيق: صالح بن محمد الونيان، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 1، 1998

١٢.الألوسي: روح المعاني، تحيق: إدارة المطابع الأميرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت

١٣.البخاري: الجامع الصحيح، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرون، المطبعة السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ

١٤.البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 1، 1988

١٥.الترمذي: الشمائل المحمدية، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 2006

١٦.التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت

١٧.جلال الدين السيوطي: الخصائص النبوية الكبرى، تحقيق: عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط 2، 1410 هـ

١٨.حاكم المطيري: عروة بن الزبير وكتاب المغازي، دراسة محكمة في مجلة «كلية الدراسات الإسلامية والعربية»، جامعة الأزهر، الإسكندرية، العدد 26

١٩.الحاكم النيسابوري: كتاب معرفة علوم الحديث، تحقيق، السيد معظم حسين، منشورات المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط 2، 1977

٢٠.الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1، 1986

٢١.الزهري: كتاب المغازي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨١

٢٢.السمعاني: أدب الإملاء، تحقيق: على زيعور، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط 1، 1993

٢٣.عبد الرحمن التميمي: كتاب الجرح والتعديل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1953

٢٤.عبد القاهر الجرجاني: معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة

٢٥.القسطلاني: لطائف الإشارات، تحقيق: عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة

٢٦.محب الدين الطبري: خلاصة سيد البشر، تحقيق: محمد عبد الغفار خان، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، ط 2005

٢٧.مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1998، كتاب الصلاة، باب جامع صلاة الليل، حديث رقم 746، ص 293

٢٨.موسى بن عقبة: المغازي، تحقيق: محمد باقشيش أبو مالك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهير، أغادير، المملكة المغربية، ط 1994

٢٩.النسائي: السنن الكبرى، تحقيق: محمد ناصر الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض

ثانياً: المراجع العربية

١. إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ط 1983

٢. أحمد أمين: النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 4، 1967

٣. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 2008

٤. أسد رستم: مصطلح التاريخ، مركز تراث البحوث والدراسات، القاهرة، ط 1، 2015

٥. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: معجم مصطلحات العولمة، نسخة إليكترونية

٦. أكرم ضياء العمري: الرسالة والرسول، ط 1، 1990

٧. أكرم ضياء العمري: منهج النقد عند المحدثين، دار أشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1997

٨. آمال محمد الروبي: الرد على كتاب باتريشيا كرون، نسخة إليكترونية

٩. حسين صبري: روّاد الشك المنهجي، دار الضياء، أبو ظبي، ط 1، 2011

١٠. حسين مؤنس: تاريخ موجز للفكر العربي، دار الرشاد، القاهرة، ط 1، 1996

١١. خالد محمد خالد: إنسانية محمد، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004

١٢. رجاء دويدري: البحث العلمي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠

١٣. رشدي فكار: لمحات عن منهجية الحوار والتحدي الإعجازي للإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1982

١٤. زكريا إبراهيم: الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، القاهرة، ط 2، 1972
١٥. سعيد الحفار: البيولوجيا ومصير الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، العدد 38، نوفمبر 1984
١٦. سهيل زكار: تحقيق كتاب «المغازي النبوية للزهري»، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1981
١٧. سيد البحراوي: البحث عن المنهج، دار شرقيات، القاهرة، ط 1، 1993
١٨. شوقي ضيف وآخرون: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 4، 2000
١٩. صلاح قنصوه: الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت
٢٠. طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000 م
٢١. عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة
٢٢. عبد الحليم محمود: القرآن والنبي، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 2002

٢٣. عبد الرحمن الشرقاوي: محمد رسول الحرية، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1990

٢٤. عبد الرحمن بدوي: دفاع عن محمد، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر

٢٥. عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، سينا للنشر، القاهرة، ط 2، 1993

٢٦. عبد الستار إبراهيم: الإنسان وعلم النفس، من سلسلة «عالم المعرفة»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد رقم 86، فبراير 1978

٢٧. عبد الفتاح خضر: أزمة البحث العلمي، نسخة مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ط 3، 1992

٢٨. عبد الله العروي: موضوع «المنهجية بين الأبداع والأتباع» المنشور ضمن كتاب «المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية»، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 3، 2001

٢٩. عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، نسخة إلكترونية

٣٠. على الطنطاوي: سيد رجال التاريخ، دار المنارة للنشر والتوزيع، السعودية، ط 2004

٣١. علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1984

٣٢. فريد الأنصاري: أبجديات البحث في العلوم الشرعية، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، ط 1997

٣٣. محمد أبو زهرة: خاتم النبيين، دار الفكر العربي، ط 2012

٣٤. محمد العيد الخطراوي ومحب الدين متو: تحقيق كتاب «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط 3، 1403 هـ

٣٥. محمد الغزالي: فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط 6، 1965

٣٦. محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1429هـ

٣٧. رينان والأفغاني: الإسلام والعلم «مناظرة رينان والأفغاني»، ترجمة ودراسة: مجدي عبد الحافظ، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 2005

٣٨. محمد بن محمد العواجي: مرويات الإمام الزهري، عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، وزارة التعليم العالي، السعودية، رقم الإصدار 64، ط 1، 2004

٣٩. محمد حسين هيكل: حيازة محمد، دار المعارف، القاهرة، ط 14
٤٠. محمد رأفت سعيد: الرسول المعلم، دار الوفاة، المنصورة (مصر)، ط 1، 2002
٤١. محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ط3
٤٢. محمد سعيد البوطي، فقه السيرة النبوية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 15، 1991
٤٣. محمد شحرور: السنة الرسولية والسنة النبوية، دار الساقي، بيروت، ط 1، 2012
٤٤. محمد عابد الجابري: الدين والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 1996
٤٥. محمد عابد الجابري: موضوع "التراث ومشكلة المنهج"، ضمن كتاب «المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية»، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 3
٤٦. محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ط 7، 2001

٤٧. محمد متولي الشعراوي: رداً على الملاحدة والعلمانيين، إعداد: عطية الدسوقي عمر ومحمد عبد الله بدر، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ط ٥، ١٩٩٩
٤٨. محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1995
٤٩. محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة
٥٠. مصطفى محمود: محمد، دار المعارف، القاهرة، ط 10، 1977
٥١. موسى بن عقبة: المغازي، تحقيق: محمد باقشيش أبو مالك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهير، أغادير، المملكة المغربية، ط 1994
٥٢. ناهد البقصمي: الهندسة الوراثية والأخلاق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد رقم 174، يونيو 1993
٥٣. نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2014
٥٤. نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص "دراسة في علوم القرآن"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2014

٥٥. نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط 2، 1959

ثالثاً: الكتب المُترجمة

١. أحمد ديدات: محمد الخليفة الطبيعي للمسيح، ترجمة: رمضان الصفتاوي، دار النهضة للطباعة الإسلامية، القاهرة، 1991

٢. إريك فورم: الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة، العدد 140، أغسطس 1989

٣. ألبرت ماكومب ونشستر: موضوع «العلوم تدعم إيماني» المنشور ضمن كتاب «الله يتجلى في عصر العلم»، ترجمة: الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: محمد جمال الدين الفندي، دار القلم، بيروت

٤. ألفونس دي لامارتين: مختارات من كتاب «حياة محمد»، ترجمة: محمد قوبعة، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط 1، 2006

٥. ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: عادل شفيق، الدار القومية للطباعة والنشر

٦. أندريه لالاند: الموسوعة الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط 2، 2001
٧. باتريشيا كرون: تجارة مكة وظهور الإسلام، ترجمة: آمال محمد الروبي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 2005
٨. برونوفسكي: ارتقاء الإنسان، ترجمة: موفق شخاشيرو، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم 39، مارس 1981، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت
٩. بودلي: الرسول؛ حياة محمد، ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جورة السحار، مكتبة مصر، القاهرة
١٠. تشارلز باسترناك: جوهر الإنسانية، زينب عاطف، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة
١١. توشيهيكو إيزوتسو: الله والإنسان في القرآن، ترجمة: هلال محمد الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2007
١٢. تولستوي: حكم النبي محمد، ترجمة: سليم قبعين، مصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 3، 1987
١٣. جارودي: وعود الإسلام، ترجمة: ذوقان قرقوط، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 1985

١٤. جاك ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون، مراجعة: أحمد فؤاد الأهواتي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة
١٥. جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة
١٦. جون ماكوري: الوجودية، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد رقم 58، أكتوبر 1982
١٧. درمنغم: الشخصية المحمدية، ترجمة: عادل زعيتر، الشعاع للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٥
١٨. ديفيد بيرلنسكي: الإلحاد ومزاعمه، ترجمة: عبد الله الشهري: مركز دلائل، الرياض، ط 1437هـ
١٩. راتسينغر: جدلية العلمنة، تعريب: حميد لشهب، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ط 1، 2013
٢٠. رينان والأفغاني: الإسلام والعلم «مناظرة رينان والأفغاني»، ترجمة ودراسة: مجدي عبد الحافظ، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 2005

٢١. زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 8، 1993
٢٢. علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا للنشر، ألمانيا، ط 2، 1997
٢٣. فرنسيس فوكوياما: مستقبلنا بعد البشري: ترجمة: إيهاب عبد الرحيم محمد، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ط 1، 2006
٢٤. كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد عناني، شركة سطور، القاهرة، ط 2، 1998
٢٥. كارين أرمسترونج: محمد نبي زماننا، ترجم: فاتن الزلباني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 1، 2008
٢٦. الكسيس كاربل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: عادل شفيق، الدار القومية للطباعة والنشر
٢٧. مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، منشورات دار الآداب، بيروت، ط 1، 1980
٢٨. مايكل هارت: الخالدون مائة، ترجمة: أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة

٢٩. محمد إقبال: تجديد الفكر الديني، ترجمة: محمد يوسف عدس، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 2011

٣٠. مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة: حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 1، 1983

٣١. هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2، 1965

٣٢. وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ترجمة: ظفر الدين خان، مكتبة الرسالة

٣٣. ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت

رابعاً: كتب بالإنجليزية

1. J. Wensinck: The Muslim Creed, Barnes & Noble, Inc., New York, Second Edition, 1965
2. Ameer Ali Syed: The Spirit of Islam, Christophers, London
3. Annie Besant: The Life and Teaching of Muhammad, Theosophical Publishing House, Adyar, India, 1932

4. Arther Wallaston: The Sward of Islam, EP. Dutton and Company, New Yourk, 1905
5. Bosworth Smith: Mohammed and Mohammedanism, Smith Elder, Co., 15 Waterloo Place, London, 1874
6. Emil Dermengham: The Life of Mohamet, George Routledge & Sons, LTD, London, 1930
7. George Buch: The Life of Mohammed, J. Harper, 82 Cliff. ST., New York, 1982
8. K. S. Rama Krishnna: Muhammad Prophet of Islam, World Assembly of Muslim Youth, (WAMY), Riyadh, Saudi Arabia, 1989
9. Lamartine: History of Turkish, D. Appleton & Company, New York, 1885
10. Macim Rodinson: Muhammad, Tauris Parke Paper backs, London, 200٢
11. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam, G.P. Putnam's Sons, New York, 1905

12. Margoliouth: The Early Development of Mohammedanism, Charles Scribner's Sons, New yourk,1914
13. Maxime Rodinson: Muhammad, Tauris Parke Paperbacks, London, 2002
14. Oliver Leaman: An Introduction to Classical Islamic Philosophy, Cambridge University Press, UK, 2004
15. Reynold A. Necholson: A Literary History of The Arabs, London, T. Fisher Unwin, Adelphi Terrace, 1907
16. Theodor Noldeke: Sketches from Eastern History, Translated by: John Sutherland Balck, Adam And Charles Black, London, 1892
17. Washington Irving: Lives of Mohamet, Baudry's Avropean Library, Paris, 1850
18. William Mouir: Life of Mohamet, Smith Elder and Co., 65 Cornhill, London, 1861
19. Yusef Islam: The Life of the Last Prophet, Darussalam Publishers & Distributors, Riyadh, Saudi Arabia, 1995

فهـــرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	١
مقدمة الدراسة	٣
التمهيد: لماذا الإنسانية......؟	١٤
هوامش التمهيد	٢٤
القسم الأول: إنسانية محمد بين الإتساق والتمايز	٢٦
تمهيد	٢٧
الإنسان من منظور قرآني	٣٤
المفاضلة بين الناس	٣٩
القسم الثاني: إنسانية محمد بين الموضوعية والذاتية	٩٦
تمهيد	٩٧
التلازم بين الموضوعية والذاتيه	٩٨
مقدمات الكتابة في السيرة النبوية	١٠٨
منهجية الكتابة	١١٢
سيادة الروح النقدية	١١٨
مقدمات الخلل في الحكم على إنسانسة محمد	١٢٢
محددات الخلل	١٢٧
هوامش القسم الثاني	١٦١
خاتمة الدراسة	١٦٧
المصادر والمراجع	١٧٧
فهرس الموضوعات	١٩٥

أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة زايد، دولة الإمارات العربية المتحدة، من محافظة الشرقية في جمهورية مصر العربية، صاحب خبرة تربوية ممتدة ومتصلة في ثلاث دول عربية هي مصر والجزائر والإمارات لأكثر من خمسة وثلاثين عامًا بين التدريس العام والتدريس الجامعي. من إسهاماته؛ الكتابة الأدبية والنشر في الشعر والقصة وفي مجال التنمية البشرية وفي إعداد وتنفيذ دورات تدريبية في مهارات التفكير العليا وإجراءات البحث العلمي وتأليف المناهج التعليمية في مجال الدراسات الفلسفية والنفسية، تخصصه الأكاديمي هو الفكر الفلسفي الإسلامي والمذاهب والفرق الإسلامية، إلى جانب مناهج البحث العلمي، من مؤلفاته المنشورة:

في الفكر الفلسفي الإسلامي:

روّاد الشك المنهجي

رؤية الله في الإسلام

بناء الوعي؛ قراءة نقدية تحليلية في تاريخ الفكر بين المسلمين

من الإرادة إلى الإصلاح؛ نظام الوقف نموذجًا

إنسانية محمد ﷺ

في التنمية البشرية:

بتفكيري أنا إنسان

عتبات التميز

فن إدارة الوقت

في الأدب العربي:

مجموعة شعرية: عناقيد السهر

مجموعة قصصية: الأقنعة

في مناهج البحث العلمي:

مهارة البحث العلمي (للكتاب ثلاث طبعات في مصر ودولة الإمارات)

كُتبنا
KOTOBNA